مذكرات طبيب فاشل

رغداء العربي

مذكرات طبيب فاشل / رواية

رغداء العربي

الطبعة الأولى ، ٢٠١١

دار اكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادى الطحان ، المرج الغربية

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

ضحي صلاح

رقم الإيداع : ٢٢٠١٨/ ٢٠١٠

I.S.B.N:٨-٠٧٢-٤٨٨-٩٧٧-٩٧٨

مذكرات طبيب فاشل

رغداء العربي

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١١

اكتب
OKTOB.NET دار اكتب للنشر والتوزيع

دار اكتب للنشر والتوزيع

AM ١٠:٣٠

شريف عبد الله...

-قوم يا واد يا شريف الجمعة قربت تدن.

-ماما! ماصحتنيش بدري ليه؟

-من إمتى والنبي و أنت بيهمك الجمعة أوي؟!

لن أُعَلِّق.. أمي عنيفة كالعادة.. إن عنفها يتمادى!

-بس إمتى جيتي من الكويت هي دي مفاجأة؟

-إيه اللي جايبك البيت وش الفجر إمبارح؟

أنا لن أرد...

مملة.. عنيفة...

استغفر الله العظيم.. إنها أمي.

لم تتحدث إليّ في الهاتف قرابة الشهر فهي غاضبة مني وعليّ.. فقد أحرجتها أمام العائلة، والناس، وخنت الأمانة!

بالرغم من أنها اسمها وفاء!

لا يهم!

على أيَّةِ حال...

أنهض من فراشي على عجل، التقط المنشفة.. أهرول لآخذ حمامًا سريعًا.

كم اكره النزول في الشوارع لرؤية مصر الفقيرة، ونساءً تشبه أمي!

سمينات، قمحيات اللون، و وقحات!

وفي الخمسينيات من العمر، ومحجبات.

" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا"

أستغفر الله العظيم!

الشحاذون يحتلون الشوارع يوم الجمعة.. متسخين.. مقززين

-يا ابني ارحم نفسك دي الجمعة.

أستغفر الله العظيم !

أنظر لنفسي في المرآة قبل نزولي من البيت مباشرة

أرى شابًا مفتول العضلات، وسيم.. ربما!

حليم.. يا الله

أنطقها.. بصوتٍ رخيم

كم يبهرني صوتي!

"وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ"

أتذكر تلك الآية..

أستغفر الله العظيم من أن أُعجب بنفسي، أو أن أُفتن.

أتحسس لحيتي الشعثاء، شعراتها تتنافر من بعضها في كل الاتجاهات.. أعتقد أن لها ملمسًا حادًا مثل الإبر.

لن أُقَبِّل طفلًا صغيرًا؛ كي لا أؤذي بشرته الرطبة بتلك الأشواك الآدمية من (الكيراتين)

انعكاس صورتي في المرآة في غرفة أبواي التي أنجبتني

لا توجد مرآة في غرفتي...

حقيقة أؤمن أن الجن يخرجون من المرآة ونحن نيام

هل مظهري جيد؟

أضع قليلًا من عطري الغالي المميز..

حبيبتي يا أمي أنت من تحضرينه معكِ دائمًا و أنت عائدة من الكويت.

أنظر إلى سروالي القصير؛ سروال أهل السنة، الذي يظهر زوجي جواربي.

ثقتي تبدأ تهتز.

أتذكر حديث أخي الصغير بالأمس مع صديقه هاتفيًّا

حينما وصف سروالي بالـ (ميني بانطلون !(Mini Pantalon

يا أخي مالك ومالي؟!

لا تطلق لحيتك.. ولا تلبس سروالي.. لا تتخذني قدوتك

التقط جهاز الـ (I-phone)، بجواره سلسلة مفاتيحي وبها ميدالية أرجوانية ليس لها شكل محدد ولكني أُحبها،و أُحب أن أُديرها في باب شقتنا.

تدور مع المفتاح.. ثم ينفتح باب شقتنا..

باب الدفء الذي يفصلني عن العالم البارد، الصاخب،والفقير.

ما هذا! وشقتنا أيضًا مُملّة.. يكفي أن فيها وجه أمي.

فرشاة أسنان أخي، و السراويل الداخلية البيضاء لعبد الله

-عبد الله أبي-، مفتاح السيارة معهم لن آخذهم...

و لن أركب السيارة

سأذهب إلى الندوة في الجامع الكبير بعد الصلاة عن طريق المترو

لست وحيدًا في هذا العالم..

حين ألتحم مع البشر..

اقبلوني بينكم يا غجر.

أنضم إلى حضن المجتمع المصري الواسع، ربما سأجد لي مكانًا بين الملايين، فيه أشتم عرق شركائي في الوطن..

كم هي رائحة مقززة!

لن يرتعب مني طفل صغير ثانية.. يتدلى من أنفه، مخاط أخضر جاف، أو شخص مسن؛ فأنا الآن نظيف!

نظيف تمامًا..

أكثر نظافة من شخص مسن خانته صحته في أن يهتم بنظافته.

يطرق أُذناي صوت الآذان..

آه يا الهي من أحب لقاء الله.. أحب الله لقاءه!

..

د.عزيز كامل محب

الساعة الحادية عشر صباحًا

يوم الجمعة ١٧-٢-٢٠١٢

صباح الخير..

عيد الحب كان منذ ثلاثة أيام.

عيد الحب العالمي، وعيد الحب في عالمي..

عالمي في القاهرة!

في ذاك اليوم كان يتناثر الكثير من الأحمر هُنا، والكثير منه هناك.

و بصاق على الأرض، و بلغم، و عُلب سجائر حمراء، وأكياس شيبسي.

أرى شابًا و فتاة مقبلان عليّ، يد الفتى في يد الفتاة، و يد الفتاة في يد الفتى.

متلونان بالأحمر.

يا إلهي لهم نفس البشرة!

نفس الفقر، نفس الثياب البسيطة، و بثور الوجه، و نفس السمرة، الفتاة تطابق الشاب؛ و كأنها شاب مُحَحِّب!

مبتسمان.. أعرف أن ليس معهم ما يكفي كي يتناولا إفطارهما

ما بالك لو قررا الزواج!

المحطة مزدحمة اليوم..

لا بل مزدحمة تمامًا..

تلمع قلادتي الذهبية تحت الشمس، وسط زغب صدري، و رأسي الأقرع.

سيصل في أي لحظة المترو الذي أُحبه.

خسرت نصف وزني تقريبًا.

للأسف لم أعد صديقهم (كرنبة) الذي عشقوه بعد أنا،اعتادوا عليه.

عزائي إني عدت عزيز.. عزيز يا أعزائي.

كنت طفلًا بدينًا..

إذا أرادت الوالدة أن تدللني، لم تنادني في يوم من الأيام بـــ (كرنبة)، و لكن ماذا عني؟ أأفضل عزيز، أم (كرنبة)؟

حسنًا، لست من متذوقي الكرنب على أيَّةِ حال

كم أنت جميلة يا مصر!

أسافر كثيرًا..

أزور أفضل مدن العالم، و أجملها.

لكن فيكِ روح أحبها، و رائحة.

أحب هؤلاء البشر.. المرضى، الحمقى، الجوعى، أهل السرقة، الكرماء، الجشعين، المسالمين...

أكره هؤلاء البشر!

-هات لي يا عم جرنان الأهرام من فضلك.

-أتفضل يا بيه.

-بكم؟

-٢ جنيه.

حسنًا، أتسلى به و أنا في المترو..

أؤمن بالحظـــ و مولع بالأبراج.

لا نؤمن بتلك المقولة (كذب المنجمون ولو صدقوا)

يا تُرى، ما حظي المنافق هذا النهار؟

يا إلهي.. لم ألحق به.

أركض كي أحاول اللحاق بآخر عربة.. هذا الشاب المُلتحي يزاحمني للدخول من الباب...

كم هو أنيق!

يشير بيده كي أدخل قبله، كم هو -أيضًا- مُهَذَّب!

هذا العطر أعرفه!

-تفضل يا دكتور.

وهو -أيضًا- يعرفني!

-ربنا يخليك، تفضل أنت يا باشا.

-لا و اللهي تفضل أنت.

صوت ثالث، حزين، رجولي، و دافئ ينادي على كلينا.

-حسنًا، دعوني أتفضل أنا.

يبتسم، يحسب نفسه خفيف الظل.

أقول لنفسي: خفة!

يدلف السيد العجوز المحترم قبلنا إلى عربة المترو الأخيرة.

يا للقدر الذي جمع ثلاثتنا في هذه العربة.. ثلاثتنا فقط.

ولا توجد امرأة!

نُريد أُنثى هُنا...

-إيه ده!

المترو يهم بالتحرك، و الشاب الوسيم، و الرجل المحترم في الداخل..

لا وقت للتخاذل...

إذن لا بد من أن أدلف إليه أنا أيضًا.

أقفز إلى داخل العربة بخطواتٍ خفيفة.

مُمسكًا الرواية الأجنبية في يد، و في الأخرى الصحيفة!

..

AM ١١:٠٠

أستاذ عادل رضا

نعم أنا عادل رضا...

يمكن أن تناديني شيبة رضا أيضًا

في أي شهر نحن؟

الطقس بارد..

السماء ملبدة..

السحب رمادية، هائجة، متشردة..

أنهينا صلاة الجمعة

لم يُصلي ابني معي؛ لأنه فتاة، و كان لديها العُذر الشهري، اليوم -بعدم الصلاة- فقد كانت حائضًا.

صوتي مختنق..

سُحقًا للسُعال..

إنه يُرهق حتى أخشن صدور الرجال..

صدري مفجوع.. قلبي موجوع

آه يا ولدي..

آه يا بلدي..

يا مأساتك يا بلد برد، أو فقر، أو جوع.

توكلنا على الله في توسل الرزق..

من أهل البترول..

في دنيا العدم.

"اللهم دمها نعمة في مجمل النعم".

كيف أصبحت رجلًا كهلًا يا عادل؟!

متى أصبحت كهلًا يا رجل؟!

ينادوني في الدولة الأخرى بالشيبة.

-قللي يا شيبة.. في أي فصل نحن؟ شهر فبراير؟!

-نعم.

إنه شهر أمشير بالتقويم القبطي..

شهر متقلب المزاج..

ومزعج!

يأتي شهر أمشير من ٨ فبراير إلى ١٠ مارس.

و اسمه باللاتينية ".Meshir"

و قسمه الفلاح المصري أيضًا إلى ثلاث أقسام: مشير، ويقال لها عشرة الغنامي "الراعى" حيث ينخدع الراعي بالدفء.

شرشر: أو عشرة الماعز حيث يعود البرد للاشتداد، و يكثر هبوب الريح، و سقوط المطر، و تنفق الماعز من شدة البرد.

شراشر: و يطلق عليه عشرة العجوز؛ حيث تبدأ العجائز في الحركة بعد ظهور الدفء.

كنت كلما أبديت امتعاضًا من تقلبات الجو فيه و أنا طفل.

كانت أمي -رحمها الله- تُخبرني: اصبر، فهو أمشير الأهبل.

(ما هو أهبل هتعملوا إيه؟)

كانت دائمًا تردد

"أمشير أبو الزعابير الكتير ياخد العجوزة ويطير"

رحمك الله يا أمي!

هذا الشاب -ذو اللحية الدمث- يُشبهه يشبه أمشير...

كلاهما ممل، وقفته واثقة، لكنه مهتز

يا الله صغير، و مُلتحي!

لو كان لي ابن مثله!

شاب تلتصق قدمه بقدمي وقت صلاة الجمعة، و اسمعه في الركوع

يردد سبحان الله العظيم!

حتى و إن رددها في السجود فهو أفضل -من لاشيء- من لا ذكَر!

لكن...

ما هذا الذي في أذنيه؟!

يستمع للموسيقى؟!

ويحه..

أيستمع للموسيقى؟

بالتأكيد لا.. ربما لترتيل سورة.

سورة الشورى، لا بل سورة الكهف، أو ربما لخطبةٍ ما.

يلاحظ أني أُراقبه..يبتسم، أتوتر، أرفع رأسي،أنظر للسقف!

..

AM ١١:٠٢

شريف عبد الله..

يا لها من صدفة!

و يا للإحراج.

غنه عزيزي دكتور عزيز،حبيبي..

سبحان الله!

كيف التقينا هُنا، فقد الكثير من وزنه!

سبحانك يا رب، كان منظره أضحوكة آخر مرة رايته!

كيف حال شقيقة التوأم طبيبي دكتور عزيز؟

لا استغرب أنه لم يتعرف إليّ، فقد صرت شبحًا.

هل سيخاف مني؟

هل يعتقد أني مثل إرهابيّ سينما التسعينيات؟!

لا.. ولكنه مثقف -معلومة أعرفها.

هل يعرف أن دمي نظيف الآن، باستثناء فيروس التهاب الكبد الوبائي من نوع "ب "Hepatitis B

آه.. نعم يعرف هو من أخبرني!

و لكنني..

لقد تعافيت تمامًا يا دكتور..

الفضل لكم.

نعم توجد صفرة خفيفة في عيني..

لكني منذ أن تحررت منكم، لم ألوث جسدي الذي كنت لا تتمنى الحصول على جسد مثله ثانية.

أنا آسف.

لا أعرف هل تحتقرني؟! وقد رأيتني في أقذر مواطن ضعفي!

رأيتني حينما سحبوا مني المخدر، و اضطرابي و رعشات جسدي، و قلقي، وجنوني، واكتئابي.

"رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين"

أنهيت صلاة الجمعة أيضًا..

و دعوت الله -بل رجوته- وبكيت قليلًا، و لم أبك.

فإيماني غير مكتمل بعد.

-يا رب بابا.. يرضى عني.. يسامحني لأني صدمته (يستاهل)، و يحبني أكثر مما أحبه (لأني لا أحبه).

"أستغفر الله العظيم"

بدأ يبحث عن ملامح وجهي وسط كومة الشعر (لحيتي).

حسنًا يبدو أنه يشعر و كأنه يعرفني.

نعم يا دكتور.. أنا شريف.. شريف عبد الله.

كنا نذهب إلى مركز الجيم ذاته.

قابلتك هناك مرة، و أنا مع أصدقائي -الذين كانوا أصدقائي ومازالوا!

كنت ترفع ثقل بوزن خمسين كيلو جرام، و لم تستطع.

لست معتادًا على رفع الأثقال جسديًّا..

لكن ربما معنويًّا، فقلبك يحمل أكثر من خمسين كيلو جرام من الهموم، أو هذا ما أحسسته.

أذكر وجهك الأحمر.. تتصبب عرقًا.

و جسدك البدين المكور..

البدين جدًا.

ولا أدري لم كان لونه احمر!

وقفوا.. التفوا حولك.. ضحكوا..

بل سخروا منك.

كنت معهم..

في داخلي لم أكن أضحك..

كنت أتفهم ذلك..

كنت ترغب بشدة أن تتخلص من الكرش!

وتصبح مثلي، أو مثلهم.

و لكني ضحكت..

ضحكت كي أعجبهم..

لأني واحد منهم..

فيجب أن أشبههم!

ومع هذا لست نادمًا أني فعلت.

"استغفر الله العظيم"

أتوقف عن مخاطبة نفسي حين أسمع صوته.

-ما هذا شريف باشا! كيف حالك يا ولد؟ أين أنت الآن؟!

-الحمد لله

-ولد! ما هذا الذي صنعته بنفسك!

-ربنا هداني

-ههههه لكن تخيل، شكلك الآن أفضل.

-ربنا يكرمك.. نحمده على الهداية.

-كيف حال صحتك الآن؟ من الواضح أنك لم تعد إلى الحقن مرة أخرى.

-لا.. الحمد لله.

-برافو يا شريف.. أنت ولد ذكي، مختلف عن المدمنين الذين قابلتهم، منذ أن رايتك و أنا أدركت أنك لست منهم!

حسنًا، منذ أن عرفتك يا دكتور عزيز شخصيًّا، و أنا أستخفك.

أقسم أني أرغب يا دكتور –بشدة– في أن أضحك.. أسخر منها،أخلعها.. أخلع نفسي.. أخلع لحيتي.. أخلع سروالي.

ألبس (شورت)، و أمد يدي ليدك.

كفك!

لكني لا أقدر.. هل أنا في موقف ضعيف الآن في نظرك؟

بلا شك أنه أفضل من موقفي و أنا عندكم في وحدة معالجة الإدمان

في مستشفى "الدمرداش".

أتذكر حينما أرادوا أن يُدخلوني كحالة، أو (case) لطلبة الطب في قسم النفسية.

طلبة في سني.. أكشف وجهي أمامهم، أرمي حيائي؛ ليسخروا مني، و أجلس لمدة ساعتين أحكي لهم عن تجربتي في

الإدمان، و سيرتي الذاتية منذ أن كان عمري سبع سنوات إلى أن ألقى بي عبد الله –أبي- في سلة المهملات –هُنا- في المستشفى عندهم!

طلبة رخيصة في جامعة رخيصة.

لا لن أفعل..

لو سمحت يا دكتور عزيز.

يريدونني أن أكون الحالة المرضية التي يتم الشرح عليها للطلبة اليوم.

-هذا صعب عليّ.

-أتفهم هذا، نعم أتفهمه.

حسنًا يا ابني لم أنت قلق الأمر بسيط يا باشا !

سأدعهم يبحثون عن حالة أخرى للطلبة.

-يحفظك الله يا دكتور.

و أكيد الدعوة استجابت؛ بدليل أن الله حافظك حتى الآن؛ لأني يومها دعوته من كل قلبي أن يحفظك، ولا يحفظ أبي.. أبي الكلب!

حسنًا..

هو من لقب نفسه بهذا مُخاطبًا وفاء -أمي- المغلوبة على أمرها.

-ابن الكلب هذا يذهب إلى أي مستشفى حكومي يتعالج فيه، لن أنفق على علاجه من فساده هذا أي قرش.

تساءلت في سري مصدومًا

-أي قرش! أي قرش! لماذا يا ظالم؟! ماذا عن كل هذه الدنانير التي تجمعها لمدة عشرين سنة من الكويت ستنفقها على من؟!

إن لم تنفقها الآن على ابنك حبيبك الكبير..

ابن الكلب!

..

AM ١١:٠٢

د.عزيز كامل محب..

أنا عزيز..

نعم عزيز على قلب والداي..

بالتحديد أمي

أبي أستاذ الطب النفسي في جامعة عين شمس.

لطالما كنت عزيز على قلبه..

لكنه لم يجد الوقت اللازم ليُظهر هذا لي يومًا..

وكان يخاف أن يجده..

كامل؟

كنت أؤمن أن من يحصل على التعيين في الجامعة كأستاذ مساعد مثلي مثلًا.. يُصبح كاملًا.

مُحب؟

نعم، محب لكل الناس باستثناء شخص هو زميلتي في القسم السمينة مثلي.

حتى هذا الشاب المُلتحي.. إنه ينظر إلي بود.

إذن –بالتأكيد– هو واحد ممن نالوا حبي يومًا ما.

يقترب..

سوف يُلقى السلام.. ها هو ذا..

نعم تذكرته!

ما هذا شريف.. باشا! كيف حالك يا ولد؟ أين أنت الآن؟!

-الحمد لله

-ولد! ما هذا الذي صنعته بنفسك!

(ما الذي قلته لتوي ربما يسبني الآن!)

-ربنا هداني.

-ههه لكن تخيل شكلك الآن أفضل! (الحمد لله أنه لم يتضايق)

-ربنا يكرمك.. نحمده على الهداية.

-كيف حال صحتك الآن؟ من الواضح أنك لم تعد إلى الحقن مرة أُخرى.

-لا.. الحمد لله

-برافو يا شريف.. أنت ولد ذكي، مختلف عن المدمنين الذين قابلتهم، منذ أن رأيتك و أنا أدركت أنك لست منهم.

تطرف عيناه مرات متتالية

الظاهر أني أحرجته..

آه ربما كانت كلمة (المدمنين) حساسة بالنسبة له، الآن من الأفضل أن تصمت يا عزيز.

أنت صامت منذ الصباح!

الولد لا يحتملك..

ولا أنت أيضًا تحتمله!

-باستثناء انه لدي إمساك حاد!

-آه حسنا قد يكون الاكتئاب الشديد هو السبب.

-لستُ مكتئبًا.

-كوب ساخن من الماء قبل الإفطار بنصف ساعة قد يساعدك!

-أنا صائم.

-ماشي يا باشا يا كبير!

معقول لم نصل بعد!

لم يعد هنالك شيء أضيفه في حديثي معه.

يا ليتنا لا نكمل حديثنا الآن لأني لست في مزاج يسمح لي بهذا ولا يبدو أنه يُرحب.

أخي..

أخي الأصغر..

نحن اثنان فقط، و لسنا أصدقاء.

طوال عمرنا كنا نتشاجر..

من يحصل على السيارة الأفضل؟

من سيرافق "أبونا" في رحلته إلى كندا؟

من سيتزوج في شقة الدقي؟

كنت دائمًا أكسب الرهان لأني كنت المفضل لدى والداي.

أعني العزيز عليهما.

أنا من التحقت بكلية الطب، و صرت أستاذًا مساعدًا فيها.

بنفس القسم الذي يعمل فيه كامل محب.

لذلك اعتقد أن أخي يغار مني.

حصلت أنا على السيارة الأفضل..

لأني الأفضل!

لكني أُفضل التنقل بالمترو يوم الجمعة، و في الحقيقة أفضله منذ مدة لأسبابي الخاصة!

و كنت طفلًا طليق اللسان، بينما هو كان "يتهته".

و كنا ندربه على الكلام و يأخذ أقراص(الهالوبريدول)، و أنا من سيتزوج في شقة الدقي، و أنا من رافق الوالد إلى كندا..

و إلى كل مكان بعد ذلك.

أنا في طريقي لأتفقد الشقة.

خيل إليّ بالأمس، و أنا أقود مارًا بجوار العمارة بالسيارة "الأفضل" أني لمحت ثيابًا منشورة، و ملابس داخلية رجالية بيضاء مغسولة بالكلور! على الحبال المطلة على الشارع.

أنا ذاهب اليوم لأتأكد..

أعلم أنها سذاجة..

فمن المستحيل أن تؤجرها أمي من دون علمي..

ولا أن تنشر بها زوجة بواب العمارة ملابسهما، فزوجها لا يرتدي هذا النوع الفاخر من الملابس الداخلية أرتديه أنا و أخي فقط!

لكني في مصر تعلمت القلق، و الشكوى، و الجنون من كل شيء..

و أن أشك حتى في حبال الغسيل!

لم أجد العروس بعد..

التي ستعلق ملابسي على الحبال في تلك الشقة، و لكن لدي قطة.. قطة أحبها.

لكنها لن تكون زوجتي!

فالشقة تتسع لشخص أضخم منها..

أضخم بكثير..

تتسع لامرأة بيضاء.. شقراء.. مكتترة.

تطبخ الطعام في المطبخ، و تغني، و تتمايل، و تراقص مؤخرها..

مؤخرها الكبيرة جدًا..

و تغني، و تفوح منها رائحة البصل.. و من شعرها الزيت، و الشامبو!

و تنتظرني..

اكره وقت العصر أن اشتم رائحة طبخ السيدات في مصر..

رائحة البصل المحمر، أو "القدحة".

تُصيبني الرائحة باكتئاب، و ليس غثيان، و تعيدني إلى ذكريات الطفولة في منتصف الثمانيات.

العودة من المدرسة، و وجبات الغداء الخجولة، و أمي تدقق في كمية الطعام في صحني، التي يتناولها ابنها السمين..

طالب الشهادة الابتدائية.

أكره أن أشم نفس الرائحة..

في علب الكشري في يد موظفين الأمن، على الأبواب، في المصالح الحكومية..

في مصر..

أكره التهام الطعام في وقت الظهيرة..

أكره الحشود الغفيرة..

و رائحة البخور.

و أعشق رائحة المخابز عند مروري إلى جوارها.

و دفء الشتاء..

عشق سماع الموسيقى، و قراءة الرواية الأجنبية التي أُفضل

في ليلة شتوية.

باردة في الخارج..

دافئة تحت بطانيتي.

جسدي ملفوف في بطانيتين ثقيلتين لا يمتلكهما من صار يعيش في بلد كمصر.

أصبح يعيش على المساعدات السياسية..

شأنه شأن الأردن!

لقد شردت كثيرًا..

هذا الرجل الطيب لا يكف عن تنقل عينيه بيننا نحن الاثنين.. أنا، و شريف.

أشعر بان هنالك عين فوق رأسي، وعينه الأُخرى المحتقنة أكثر فوق رأس شريف، و بالذات هو!

يبدو مرهقًا، وعينتاه محتقنتان.. ولا يكف عن السعال.

في العربة الضيقة تتطاير العدوى، فليضع منديلًا ورقيًا على فمه

فهي لم تُصنع بلا جدوى!

..

AM ١١:٠٢

أستاذ عادل رضا

تأخرت على خديجة أختي التي تنتظر مني تلك الزيارة سنويًّا..

أو بالأحرى تنتظر حقيبة الهدايا..

لها، و لزوجها، و أولادها..

آخر ما تبقى من الأهل للعيال..

-هل أقدر على الذهاب إليها بدون حقيبة الهدايا؟!

لا تتصل بأخيها المغترب؛ بحجة أن المكالمات الهاتفية

ترهق وزنها الثقيل، و جيب زوجها الموظف الحكومي.

لا تستقبلني حبًّا فيَّ، أو اشتياقًا لي..

ربما تشعر أنه الواجب الذي يجب أن تقدمه تجاه..

فرع من فروع شجرة العائلة..

فرع مكسور، مريض، و ساذج.

أتحسس الحقيبة في يدي، هي مفتاح تقديمي لأختي..

فأهلًا بك يا حقيبتي.. و لعنة الله على أختي!

بنطلونات جينز للولدين الصغيرين، و فستان أصفر..

فاقع لونه -يسر الناظرين- للبنت الصغيرة.

وقميص بأكمام، للمحترم زوجها -على فكرة لم أشترِ لنفسي يومًا قميصًا مثله- وهي خاتم ذهبيّ.

و أشياء أُخرى جمعتها طوال العام، ولا أتذكرها.

فعليّ أن أقدم ثمن اغترابي..

لأقاربي، و أحبابي، و ثمن مكالماتها لتهنئة أولادي في عيديّ السنة اليتيمين.

الأعياد التي اعتدت قضائها وحيدًا في الغربة.

يذبح أولادي خروف العيد هُنا، و أذبح نفسي هناك كل يوم مائة مرة.

يفطرون في رمضان سويًّا، و أنام أنا حتى العشاء، لا أحد يوقظني وقت آذان المغرب.

و من سيُفسد صيامه بتذكر عادل الشيبة!

من دون أضراس..

أما زالت لديه الرغبة في الأكل؟!

استيقظ وقت التروايح، روحي مشتاقة للكنافة، و القطايف.

أتناول إفطاري من الخبز، والجبن، و البيبسي!

و أولادي تناولوا قبلي بساعات قلائل ما أبدعته أمهم في مطبخ شقتنا الذي أزوره مرتين في السنة، مرة في الصيف.. مرة في الشتاء.

أدخله كضيف..

ضيف خجول اعتادت طاولة المطبخ أن مكان كرسيه دائمًا شاغر،و عليه غبار.

افطروا يا أكابدي، بالهناء، والشفاء.

المحشو.. المعكرونة بالباشميل.. الملوخية.. البط...

رائحة طبخ أُمي -حبيبتي يا حاجة- أتذكر نفسي حينما كنت صغيرًا..

رمضان في قريتنا..

تنادي علينا أمنا بأسمائنا واحدًا.. واحد وقت الآذان لتوقظنا.

لنلتف جميعا حول الطبلية مع أبي الفلاح.

كانت فقيرة، وكان رضا الفلاح فقير، ومع ذلك كانوا يدعوننا لمشاركتهم طعامهم بمنتهى الكرم، و لم يراقبوا يومًا عدد اللقيمات.

كنا نأكل، ولا نعرف من أين وكيف جاء ما نأكل.. أو ماذا نأكل!

كانت تحيل القمح ذهبًا.

بإذن الله..

كل شيء فقير كان يلمع بين يديها الفقيرتين..

تنادي علينا..

-كامل؟

-قادم يا أمي.

-خديجة؟

-قادمة.

-عادل.. عاادل.. عاااااااادل؟

-عادل غائب يا أمي..

عادل ضائع في بلاد بعيدة..

بعيدة عن بيتنا الريفيّ البسيط..

ضائع وسط صحراء شاذة عن القرية، و الغيط.

ينام وحيدًا فوق أرضٍ تنام على بترول.

يبكي وحيدًا..

يأكل وحيدًا..

ينعيكِ -كل عام، أنتِ، و أبي، و شقيقي كامل- وحيدًا

رحمكِ الله يا أمي!

"طعم الحاجات..

بيعيش ساعات..

و يدوب قوام..

وقوام يفوت..

جوه القلوب..

والذكريات..

مايعيش غير..

طعم البيوت"

كم تُبكيني أغنية محمد منير.

تلك التي أرسلتها لي ابنتي في حواراتنا على "الماسنجر"

" جدران بتحضن جوه منها قلوب كتير..

و أبواب بتقفل ع الجنايني، و ع الوزير..

قلبي محضون وحدي في شقتي الفقيرة هناك.

من مثلي يعيش ويموت قبل أن يصل إلى مقبض الباب!

"أسرار كتير عدد البيوت..

في الشارع الطيب يا ناس..

ميبنش منها غير اللي يطلع منه صوت"

"اللمة لما تحلى في ساعة العصاري.."

-آه يا لمة بيتك يا رضا من أربعين سنة!

"تفتح مزاد ع الحب تلقى ألف شاري..

شاهد بيفضل من البداية للنهاية..

و كل ركن في قلبه يحكيلك حكاية..

و كفاية لما بتلاقيه..

فاتح دراعه بيناديك..

ويقول تعالى في حضني دة أنت واحشني موت"

-يا ترى يا إلهي من هو الشخص الذي وحشته موت الآن؟

واحشاني موت يا أمي بجد..

أقسم أني افتقدك..

ألن تنهضي؟!

انهضي أيتها الغالية؛ لتري كيف أصبح عادل الصغير.

انهضي؛ لتسمعي أكبر أحفادك خديجة ابنتي..

اسمعيها حينما كانت تقول لي:

-أبي، آخر مرة كنت فيها عندنا و أنا أرتب الملابس نسيت أين كنا نضع ملابسك في الدولاب!

وتضحك..

اخبريني يا أمي..

هل كان يجب أن اضحك حينها؟!

لم أضحك يا أمي، ولم أُجبها أين كان يجب أن تضع ملابسي.

ألا صحيح!

أين كانت ملابسي توضع يا أُماه؟!

..

Am ١١:٠٥

شريف عبد الله...

المترو يعصم العينان من الخطأ..

حينما أقود لم أتمكن -قديمًا- من منع انحراف عيناي أنا، و أصدقائي إلى جهة الفتيات المارات في الشارع.

بنطلون جيتر ضيق..

فتاة متبرجة..

بالرُغم من إيماننا أن فتيات مصر أقل نصيبًا في الجمال من غيرهن، ولكن...

أصبحت الحملقة لدينا مرضًا..

حتى أننا كنا نحملق في أجساد سيدات تلبسن الخمار، و في أعمار أُمهاتنا.

نحملق في بنات الشوارع،وبائعات المناديل الورقية،و نادلات المطاعم.

أصبحنا نستهين بالأنثى كثيرًا.

كم جربنا السير بالسيارة في شوارع جانبية متفرعة من شوارع رئيسية راقية.

أذكر كم الفتيات اللواتي عرضنا عليهن الركوب معنا مقابل المال،

و أي مال!

مال زهيد أفضل ما يمكن أن يمتلكه طالب جامعي..

فوجئنا بعدد الفتيات اللواتي لم يرفضن عروضنا!

ولهول المفاجأة.. كان نصفهن من المحجبات.

لم أعد أثق في أي فتاة.. خاصة المحجبات!

حتى لو كانت منتقبة، و بإسدال على جسدها.

-إزاي كنا بنعمل كدة، دة إحنا ماسيبناش بنت ماشية في الشارع في حالها!!

لا أنسى تلك المرأة..

كانت توجد امرأة تتواجد دائمًا بجوار الشارع الذي اقطن فيه.

كانت فيما يبدو مختلة عقليًّا..

تمشي في الشارع هائمة على وجهها.

شعرها أشعث، مصبوغ بلون أشقر مخيف،رموش اصطناعية طويلة.

تقريبًا نصفها العُلوي شبه عارٍ، و كبيرة في السن.

في سن المسنة أمي..

لم أتأكد إذا كانت مختلة أم لا.. فأنا والحمد لله لم ألمسها قط!

بينما تناوب أصحابي، بل معارفي القُدامى على اصطحابها معهم

في سيارات أهاليهم.

كلما قابلتها وجدتها تخرج من سيارة مختلفة، و يودعها شخص مختلف، وهو يعطيها نفس المبلغ!

سبحان الله منذ أن هداني الله،وأنا لم أعد أقابلها في منتصف الليالي، هائمة في الشارع.

هل هداها الله مثلي؟

أم ابتلاها بمرض جنسي، أو فيروس؟

ما هذه السيرة العطرة يا شريف!

أستغفر الله العظيم!

أتذكر في ليلة من الليالي العشر الأخيرة من رمضان أصدقائي القدامى.

أحمد: واد يا شريف.. اليوم يوم خاص.

شريف: ماذا تنوي أن تفعل يا شقي؟!

أحمد: سوف نأتي شقتك، ومعنا فتاتان.

شريف: و لم شقتي أنا؟!

أحمد: أنت الوحيد الذي أهله مسافرون.

خالد: لا يا أخي، أعفيني أنا.

شريف: ولماذا أنت بالتحديد؟

خالد: صباح الخير، أنه رمضان يا أخي، ألا تتقون ربكم أبدًا؟!

أحمد: ما شاء الله على التقوى، منذ متى؟!

خالد: اعذرني لست معكم هذه الليلة.

أحمد: و أنت يا أخ شريف؟

شريف: آه بالطبع.

لم يكن بوسعك الرفض يا شريف، فأحمد هو الممول الوحيد الذي أعرف للهروين.

الكلام التقليدي..

الإدمان آفة..

الإدمان هلاك للشباب..

قل لا للمخدرات...إلخ.

هششش!

الإدمان كان أمرًا طبيعيًّا في حياتي.

مثلما أصحو.. أفطر.. أغسل وجهي.. أذهب إلى الجامعة.. أغلق الموبايل في وجه والدي حينما أرى أي رقم على الشاشة يبدأ بمفتاح الكويت +٩٦٥.

أضرب حقن...

لم أكن أشعر حينها أني أرتكب جُرمًا، أو آتي على أموال أبي،

أمواله الحلال، التي أفنى عمره في الغربة ليجمعها.

أموال أخوتي..

ولا اشعر أني أخون ثقته فيّ، أو ثقة وفاء زوجته...

بإمكاني أن أعيش دونهما، لكن لا يمكنني العيش من دون تلك الحقن.

فهي نعيم من الله؛ حتى أني كنت أنظر بشفقة للبشر العاديين، الذي يزاحم بعضهم بعضًا في الشوارع.

الذين لم يجربوا تلك النشوة.

الالتصاق بالفتيات في الميكروباصات، أو محاولة تحرش البائع بهن حين.

يحاول إمساك يد أحداهن وهي تعطيه النقود.

ليست تضاهي تلك النشوة..

النشوة ليست امرأة..

و ليست أسرة..

وليست بيت دافئ عديم التهوية، رائحته كئيبة.. رائحة نوم، ومرض.

أو عيد أضحى، و جلباب متعطر أبيض، و مكويّ!

و أقارب في السادسة صباحًا.

ودماء.. دماء خروف مذبوح

وابتسامة مصطنعة..

و لُعاب قبلات أخوتي فوق خدي.

أدفن خجلي في كوني مختلفًا في محاولة بقائي مُعترضًا مُتذمرًا و مُنحرفًا!

نعم، حتى نحن الشباب أبناء العشرينيات نخجل..

لاحظت هذا..

أنا أخجل، و ينكر زملائي..

و لكنهم أيضًا يخجلون.

في قاعة المحاضرات إذا طلب أحد الأساتذة من أحدنا أن يأتي إليه

بجوار "البروجيكتور " او شاشة العرض.

لاحظتها..

لاحظت أني أمد يدي بحركة تلقائية خلف ظهري كي أُنزل التي شيرت بافتراض أنه مرفوع!

وكذلك هم أيضًا..

ماذا نحاول أن نُخفي؟!

هل نحن فتيات؟!

نخاف من أن يظهر ظهرنا وهو عورة!

بل نخاف أن يظهر خجلنا..

خجلنا من من؟!

كان مدرج قاعة المحاضرات يزخر بالبنات المحجبات زميلاتي

اللواتي أكره..كنت أكره المحجبات، لا.. بل أستغربهن.

أجلس في آخر القاعة كي أتمكن من الكلام،واللعب بالموبايل

وقت المحاضرة.

أمامي صفوف عريضة، و رؤوس مغطاة بكل الألوان..

إيشاربات منقوشة.. مشجرة.. مرقطة.

و أحجام رأس مختلفة..

رأس بني، أزرق فاتح، أصفر، و فوشيا.

مرة سأل الدكتور واحدة منهن سؤالًا لم تستطع الإجابة عليه، و تعثرت في الكلام، و حينما أدار لها الأستاذ ظهره؛ أخذت تضحك.

تضحك هي، و صديقاتها الجالسات إلى جوارها.

عرفت أنها كانت تضحك رُغم أني كنت خلفها، و كان يفصلني عنها أكثر من ثلاثة صفوف من الرؤوس الملونة.

وذلك لأني لاحظت أني رأيت ارتعاشات جسدها..

وجدتها ترتعش تنتفض مثل الفرخ المبلول.

الفتاة البشعة!

..

AM ١١:٠٥

أستاذ عادل رضا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه:{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد ٢٣ – ٢٢].

ها أنا في طريقي الآن لوصل الرحم..

قادم إليكِ يا خديجة.

-جايلك يا خديجة يا أختي.

الله يرحمها الحاجة أمي، التي كان جلبابها في سنواتها الأخيرة

دائمًا رائحته رابسو!

تحثنا على أن نكون معًا.

-إذا مت أعرف انك ستفترقون.

خلت أن أمي سوف تخرج حزمة العصي مثل القصة الشهيرة، و تحاول كسرها فلا تنجح، ثم تخرج عودًا واحدًا منها فينكسر!

ولكنها تكمل: أعتني بهم يا كامل، فأنت الكبير،وخديجة طائشة، لم أكن راضية عنها بقلبي،ولكن مادامت سعيدة مع زوجها، وفقهم الله!

تقولها أمي بفمها المنكمش،ووجهها منكمش، و في وجهها بقع -بالرُغم من أختي تزوجت زوجها هذا، و أمي لم تبارك تلك الزيجة- قرأت في عينيها الرضا..

رضا أم سعيدة بأن خديجتها مستقرة، مستورة في بيت زوجها.

بالرغم من عدم انتشا ر العنوسة وقتها مثل زمننا هذا الآن.

لكن ما كان يحرز وقتها أن خديجة.. خديجة بيتنا (متستتة)!

طوال عمرها كانت متمردة على كل شيء..

أصول العائلة، و قيم القرية.

لا أنساها حين كانت طفلة صغيرة، حمقاء،وملابسها قذرة، و لا يزور شعرها المشط!

تركض حافية في القرية، و تبلل نفسها في الليل، و في النهار مع أطفال القرية في قناة المياه الضيقة.

هل أصابت البلهارسيا خديجة؟!

هل بعد عام أو أكثر سأسمع عن خبر مرضها، و تضخم الكبد، و الطحال، و قيء دموي؟

هل سأفقد خديجة اللئيمة؟ و تلحق بالحاجة، والحاج،و الأخ العزيز كامل؟

لم نزلتي (القناية) -كما نسميها باللغة العامية- حافية يا خديجة؟

لم ركضتِ حافية في طين قريتنا المبلل؟

عدت بالأمس من قريتنا، و في الطريق و أنا في السيارة "البيجو"

كانت السيارة تُرَج رَجًّا، و سائق السيارة العجوز الوقح يجري بها على الأسفلت جريًا.

يجتاز كل مطب صناعي و الآخر، و أنا نائم في المقعد الخلفي، و ينسدل من فمي سير رفيع من اللعاب.

لا أشعر فقط إلا باهتزازات السيارة العنيفة، و كان جمجمتي أصبحت مثل القلة، ودماغي صار مثل الماء داخلها يُرَج رجًّا مع كل رجة.

كنت العن الدولة التي لم تمهد الطريق ، و أتذكر قول عمر بن الخطاب أمير المؤمنين (رضي الله عنه) حينما كان يبكي خائفًا خشية أن تعثر بغلة في العراق فيحاسبه الله عز وجل.

لما لم تمهد لها الطريق يا عمر؟

أتساءل من عليه أن يمهد الطريق للبغل "أنا"، و للسائق المدخن البغل أمامي، و لذلك السيد الملتحي البغل، و زوجته المنتقبة، و طفلهما الرضيع في المقعد الأمامي بجوار السائق.

حينما كنا على وشك الركوب في بداية الرحلة، و ننحشر في "البيجو".. عرضت عليهم -من باب اللياقة التي لم أعد احتفظ بالكثير منها في مصر- أن آتي مكانهم في المقعد الأمامي، و أهديهم مكاني، و الرجل لم يرفض عرضي صراحةً.

-نحن فقط نريد الجلوس في الخلف من أجل أم معاذ إن رغبت في إرضاع الطفل!

لم التفت له، و لا كأني سمعته.

من هذا الطفل كي يرضع أم لا!

ما لفرق الذي سيحدثه إن رضع؟! حينما يكبر هل سيغير العالم مثلا؟!

من معاذ هذا؟!

أفضل ما يمكن أن يحدث معه، أن يكون كوالده.. فقير، يرتدي معطف خفيف رديء في البرد، و ينحشر هو وزوجته في "البيجو" مع رجل مثلي.

و ربما كان أسوء و في أيامه لن توجد "بيجو"، و لا طبق طائر حتى!

لم أتزحزح من مكاني، فهمِّي، و تعبي، و شدة حاجتي للمقعد الخلفي المريح أكبر بكثير منهم، و من معاذ شخصيًّا، ولسان حالي يقول (إنشالله عن معاذ ما رضع)! أحتاج إلى مقعد يحمل رأسي المليء بالهموم، والقلق.

الذي يترجرج طوال الطريق مثل القلة!

ثم بدأت مؤخرتي تؤلمني من طول مدة الجلوس، والانحشار في "البيجو".

مؤخرة رجل عجوز.. الشيبة.. الذي أرهقه الوقوف، المشي، و حتى الجلوس على مقعدة الحمام لقضاء الحاجة!

استيقظ تارة أخرى مفزوعًا على صوت أحد ضباط مرور على كتفيه نسر، ونجوم وهو يصيح في إحدى السائقين المتهورين،والفاطرين في نهار الأيام العشر الأولى من ذي الحجة.

-يخرب بيتك.. يخرب بيتك!

وسيارة السائق النقل مركونة على جانب الطريق.

لثاني مرة توقظني الحكومة!

لا أدري ما الذي سأفعله إذا أيقظتني للمرة الثالثة؟!

عدت للنوم، و إذا بي أستيقظ لثالث مرة –لم أفعل شيئًا– على صوت السائق يخاطب أبو معاذ بشأن إحدى إعلانات الترشيح لمجلس الشعب.

للسيد فلان الفلاني من حزب الإخوان المسلمين..

فلان الفلاني رمز الساعة..

إعلان الترشيح مخطوط على البيوت الريفية القديمة.

آه.. أذكر فلان الفلاني هذا.

كان يلعب معي قديمًا في شوارع قريتنا القذرة.

نعم قذرة!

لا يشبه الريف المصري الريف الأوروبي، فهنالك قبعة صفراء من القش،وحذاء طويل، و قميص أحمر،وسروال جينز، وماعز بيضاء،وسقف من القرميد الأحمر،وأنوف حمراء، وخدود، وأنوف دقيقة في وجوه بيضاء.

أمَّا هُنا.. فلا يوجد طعام، و لا يوجد بشر، أبحث عن طعام صالح للآدميين في قريتي وسط قمامة فول، و طعمية في زيت مستهلك، و أمام المحل فئران نافقة.

لم أعد أطيقك يا قريتنا...

أصعد فوق سطح المترل الذي ضم ذكرياتي، و همومي، وبكائي أثناء الثانوية العامة،ومراهقتي،وشاربي الخفيف الرمادي.

السلالم متسخة..

يمتلكه الآن عمي، و زوجته سيدة عجوز ريفية ظهرها يؤلمها، و لا يمكن أن تنظف.

أصبحت هي، وعمي بقايا هالكة من الزمن الجميل الأغبر.

الظهور منحنية، و العيون منكسرة، خجولة، تعيش على المعاش القليل، تدور في أرجاء المترل، تبحث عن حنان، وصلة رحم من بعدما شاب الزمان.

صلة رحم من أي حثالة حتى لو مثلي.

فرح في المترل حين أصل!

أدخل الصالة الرئيسية التي طالما ضمت جلساتنا، وضحكاتنا، و مصائبنا.

تبدو صغيرة جدًا، لقد صغرت، و ضاقت بمن فيها..

حتى أنها لم تعد تكفي (الطبلية) وهي طاولة خشب مستديرة كنا نتناول عليها طعامنا دائمًا.

كيف كانت الطبلية توضع هُنا؟

و نلتف حولها جميعا!

و نأكل بنهم؟!

صورة والداي على الحائط، يبتسمان بسذاجة، و أسنانهما صفراء.

يحتضن أبي أمي، و تحتضن أمي يد الأريكة.

"رحمهما الله"

حائط متسخ..

البيت مليء بالبكتيريا.. يحتاج إلى التعقيم!

طين على الحائط، و طين على السلالم،و طين في المقاعد.

أجري، أصرخ، أهرب إلى السطح في الدور الخامس.

كم يبدو صغيرًا هو أيضًا!

بيوت الحمام صديقتي مهجورة، يبدو و كأنه هاجر منذ آخر مرة رحلت فيها عن القرية تتلألأ أمامي صغيرة البيوت المبنية حديثًا -بعد أن فرجها الله على أهل القرية- تحجب رؤية الغيطان عني، و أطباق الدش.

الأطفال تجري حفاة، و أقدامهم متسخة، ورائحتهم كريهة، و لهجتهم ريفية جميلة.

تقفز من مختلف الارتفاعات، و لا تقع!

بسبعة أرواح!

أغادر المترل المتسخ، أنزل إلى حيث البقرة ترقد تجاورها الجاموسة، و كم أختلف شكل الجاموس!

وابن عمي يحاول أن يبعد ابنتها الصغيرة عن أثدائها المتدلية كي يتمكن من حلبها.

استغربت في نفسي لما كل هذا الصراع على حليب السيدة الجاموسة بين ابن عمي، والجاموسة الصغيرة!

لا يستحق اللبن الجاموسي كل هذا الصراع، فهو ثقيل على المعدة، و ليس له اشتياق في نفسي، كما انه متوفر أيضًا بسهولة في محلات الألبان في القاهرة، لم هذا العذاب، و السير وسط أكوام الطين، و لدغات البراغيث!

ومن ثم يخطئ ابن عمي في وصف اللبنين، لبن الجاموسة، والبقرة، و يخلط بينهما فيدعي أن لبن الجاموسة هو الأقل في الدسم، و الحقيقة هي العكس!

قرأت منذ يومين عن بقرة قتلت صاحبها حين كان يحاول إخراجها من الحظيرة.

حيث نطحته بقرنيها فأخرجت أمعاءه واردته قتيلًا، وانتظرت حتى أرى ابن عمي مُلقى على البرسيم،وأمعاءه خارج جسده، تزينها الدماء.

و لكني استصعبت الأمر فحينها سأكون مسئولًا عن استدعاء الإسعاف، و أي إسعاف هذا الذي بإمكانه أن يصل إلى قريتنا المتطرفة! قبل أن يلفظ الرجل أنفاسه الأخيرة!

تسرع السيارة،والقائد المتهور يريد أن يصل بأقصى سرعة.

ألمح قطة صغيرة، مترددة تعبر الشارع.

تتردد..تتخذ قرارها لعبور الطريق السريع حينما كانت سيارتنا البيجو بعيدة، و أن ما وضعت أرجلها الأربع على الأسفلت حتى أسرع سائقنا بدهسها!

لم أصدق ما رأيت شهقت مذعورًا، عقدت لساني الصدمة.

أفاقني مواء القطة و كأنه بكاء طفل صغير، و منظرها وهي تمشي منكسرة متألمة، و أمعائها وردية تتدلى خارج جسدها.

راقبتها وهي تدير ظهرها لنا بانتظار أن تتروي في أي جانب لتلاقي ربها!

انتظرت أن يتفوه السائق بشيء، أو ن يؤنبه الأخ الملتحي إلى جواره، أو أن تلطم زوجته من فوق النقاب، أو أن يصرخ الرضيع..

و لكني لم أسمع تعليقًا، ولا أي صوت، ولا حتى همسًا!

صحت به: ما هذا الذي فعلته يا أخينا؟!

-خير يا بيه؟

-لقد دهست القطة الصغيرة منذ قليل.

-ههه يا سيدي!

- يا رجل اتقي الله، لقد أحسست أيضا أنك تعمدت هذا، و تخيلت حتى انك ضحكت...؟!

-يا بيه دعنا نروح عن أنفسنا قليلًا، ألا يكفي ما نحن فيه!

-!!لا حول ولا قوة إلا بالله لأعد للنوم أفضل لي.

شخص مثله لن يفهم حتى الحديث عن المرأة التي دخلت النار لأنها حبست قطة، لا هي أطعمتها، و لا تركتها تأكل من خشاش الأرض.

و سندخل في حوار طويل عن معنى كلمة خشاش!

لا حول ولا قوة إلا بالله

لا حول ولا قوة إلا بالله!

..

Am ١١:٠٥

د.عزيز كامل محب....

نتحدث عن مصر كثيرًا و كأنه لا يوجد دولة في العالم غيرها، ولا تدور أحداث في العالم إلا فيها.

خمس برامج حوارية يومية تتحدث عنها، و بالأحرى عن القاهرة فقط.

بالرغم من أني بإمكاني أن أدور حول القاهرة كلها في ساعتين

لولا الزحام!

سمعت في إحدى البرامج الوثائقية الأجنبية أنها أكثر عواصم العالم ازدحاما فكرهتها أكثر!

الحياة في مصر تشبه المنحنى الذي يهبط إلى الأسفل، كل يوم عن يوم تزداد سوءًا، و تزداد الحياة، و نفوس البشر انهيارًا.

لا يمكنك أن تدرك كم الوقاحة إلا إذا قمت بقيادة سيارتك في وقت الذروة في شارع رئيسي مزدحم.

قد يَسُبَّك شخص أصغر منك، أو سيدة أكبر منك في السن تكن لها الحب، و الاحترام إن لم تعرفها، تصدمك بنظرتها العدائية، الشرسة، و وابل من السباب.

أحيانا كنت أشعر أني على وشك البكاء كالأطفال، أنا عائد من المستشفى قبيل غروب الشمس، مرهق، لا أفكر سوى بالطعام، الاستحمام، و النوم، و كثيرًا ما كنت أشعر بحالات الإغماء في مقعدي، و الرطوبة تضرب وجهي، و هي تنهرني، و تصم أذناي ببوق سيارتها تسبني.

غير عابئة بالهلال الأحمر المشع على زجاج سيارتي.

أشعر بالمهانة، و الاحتقار، و الكثير من الذنب.

أعود إلى المنزل أركن السيارة، بمساعدة البواب الكسول، الوقح أطلب منه مرتجفًا أن يغسل السيارة، و أنا أنظر لفضلات الحمام عليها بحسرة، يرتبط معي الحمام بذكرى سيئة، وعقدة من الطفولة.

منذ نعومة أظافري و أنا أقرأ.

كنت أعشق قراءة صفحات الحوادث في أواخر الثمانينات، أقرأ عن فتاة شابة في إحدى المحافظات تستدرج طفلة خلف برج الحمام المصري الأبيض لتقتلها هناك كي تسرق قرطها الذهبي، و ربما بالنهاية تكتشف أنه (فالصو)!!

و صورة الشابة ترافق الخبر، وعلى عينيها عصابة سوداء كي لا يتعرف إليها احد!

لا تفارق مخيلتي صورة الشابة، و الخط الأسود على عينيها.

أخاف من الذهاب إلى المرحاض ليلًا، أطلب من شقيقي الصغير الوقوف إلى الباب.

و ربما بللت فراشي ليلًا، و تنهض أمي شاكرة لتغيير الملاءة، و مساعدتي في إخفاء الأمر عن أخي؛ كي لا يسخر مني في الصباح.

كنت أنظر لأمي وهي تغير الملاءة بنظرات منكسرة تحمل الكثير من الامتنان، كنت أراها وكأنها العذراء مريم تفرد الملاءة فوق سريري الرطب،وتغطي بقعة المياه الكبير في الوسط، وتبتسم لي و أنا أرتدي سروال مختلفًا عن لون بيجامتي بعدما تفضلت هي بإعطائي سروالًا نظيفًا.

يا للملل!

مر علينا في هذا المترو أكثر من ساعة، و لم نصل بعد.

أتحرق شوقًا لمعاينة الشقة.

يبدو شريف هذا هادئًا على غير عادته أيام علاجه، السماعات في أذنيه يبتسم بالتأكيد.. يلاحظ نظرات الرجل المحترم إليه.

نظرات متأملة طويلة ليس بإمكانه حتى أن يرفع عينيه عنه أو أن ينظر إلى اتجاهي.

لو يعرف الفرق الكبير بيني،وبين شريف لما أشاح بنظره عني،نظرات الإعجاب ههههه لا يعرف تاريخ الشاب الأسود، لا يمكن له أن يتوقع أن هذا الوسيم الأنيق كان مُدمنًا مُهانًا.

هل هي يا تُرى أكبر خطاياه؟هل سرق للحصول على المال؟هل اغتصب إحداهن؟

هل اعتدى على طفلة ما؟

مروة.. يااااه منذ مدة لم أرَ مروة، لقد اشتقت إليها، أو همت بها.

مروة ابنة الثماني سنوات، النشيطة برغم المرض.

ضحكتها جميلة، رُغم تسوس أسنانها الأمامية بنية اللون.

لقد كانت طفلة غضة، طرية...

أحيانًا كنت أراها وكأنها امرأة،ولكني كنت أتدارك الموقف سريعًا فأنا أصغر بقليل من أبيها المتوفى.

لم أستطع منع نفسي في كثير من الأحيان من تأمل مؤخرتها الممتلئة وهي تركض مبتعدة عني بعدما أكون قد أعطيتها جنيها، أو كيس شيبسي.

بالنسبة لها أنا الدكتور فهي، لم تتعلم أن تنطق كلمة "عمو" و لن تتعلمها!

لم يمنعها مرض (الثلاسيميا) من أن تركض هنا، و هناك من أن تحفظ تضاريس المستشفى، من أن تتسول من الطلبة، أو الأطباء.

-دكتورة أنا عايزة حاجة حلوة.

و لم يحرجها أحدهم يومًا و لم يخرج لها شيئًا من جيبه، فهي طفلة جذابة بحق، بشوشة، و مبتسمة.

صغيرة، و غبية.. لكن ما يميزها عن بقية مرضى (الثلاسيميا) هناك أنها شقراء ممتلئة لم تفقد وزنها بعد.

لم يشوهها المرض كباقي الأطفال هناك، لم تنخفض عظمة أنفها، لم يصفر وجهها بعد، لم تضق عيناها، و تصبح منغولية الشكل بعد، و لم تملأ وجهها البقع الصغيرة، و تبرز وجنتاها وأسنانها الأمامية بشكل سيء.

و ضفيرتها شقراء طويلة تنسدل على ظهرها.

تهتز، وتتمايل مع حركاتها ضفيرة نظيفة، رغم أنها لم تعرف طعم الشامبو بعد.. أنا متأكد!

لا تلتصق صورة مروة بمخيلتي طوال اليوم، و رُغم هذا لا يبدأ صباحي من دون أن أراها.

فهي شبه مقيمة في المستشفى الجامعي من أجل نقل الدم كل أسبوعين!

و "الثلاسيميا" مرض مروة، أو أنيميا دول حوض البحر المتوسط من الأمراض المعروفة منذ القدم في هذه المنطقة، وقد تم تحديد هذه الآفة التي ابتلتها على يد الطبيب كولي عام ١٩٢٥، عندما تم تشخيص حالات لمرضى يعانون من فقر دم شديد، ومجموعة أعراض لتشوهات العظام، و موت المصاب في نهاية المطاف.

وهي مرض وراثي يؤثر في صنع الدم، فتكون مادة "الهيموغلوبين" في كريات الدم الحمراء غير قادرة على القيام بوظيفتها، ما يسبب فقر الدم وراثي، و مزمن يصيب الأطفال في عمر الزهور!

يبدو أن (ثلاسيميا) العصر لم تصب مروة فقط في كرياتها الحمراء، بل امتدت لتصيب الجميع كل بحسب رزقه، قد تصيب القلب، و قد تصيب العقل، و قد تمتد أحيانا إلى الرزق أن الكل يصاب منها بقدر فهي أشبه ما تكون بنهر الجنون!

المهم!

تصادقنا !

أنا، و هي صرنا أصدقاء الآن. عرفت أن والدها متوفى، وبالطبع أعرف أنهم فقراء، لديها أربعة أشقاء غيرها، أحدهم

لديه تخلف عقلي! و أمها الشابة سنًا العجوز خبرة، ليس لديها الوقت لتوليها كل الرعاية، و الاهتمام، و ليس لديها المال لتستمع إلى شكواها التي لن تنتهي إلا بانقضاء عمر البنت.

ذات مرة جاءت مروة إليّ مستاءة -مستاءة من أشياء كثيرة كالعادة- فهي جديدة في المستشفى، و هي دائمًا تبدو — و حتى الآن- مثل الزهرة بين المرضى، كأنك ترى وجوه سوداء، وهي الوجه الأبيض، المشرق، الوحيد.

هناك دائمًا ما كنت أشبهها بالمصباح الكهربائي المضيء وسط الوجوه السوداء.. لا زلت أذكر الصدمة حينما سألتها عن سبب وجود المصباح الكهربائي في المستشفى، لم أصدق أن كل تلك النضارة، و الجسد العارم، مريض "بالثلاسيميا"!

تلك الآنسة الصغيرة المصرية جدًا!

-شكلك مضايقة النهاردة مالك؟

-جعانة.

أُخرج لها قالب شيكولاتة من جيب البالطو الأبيض.

-أتفضلي يا أمورة.

تأخذه مني، غير شاكرة، أو ممتنة، بالرغم من ارتفاع سعر القالب، و هي لا تدرك ذلك، ولا يهمها.

تجلس على الكرسي المجاور لمكتبي،وترنح رجليها في الهواء.

تجيبني وهي تخرج الشيكولاتة من الغلاف بعنف.

-ماما بتضربني كتير.

أمها الشابة المغلوبة على أمرها، و وجهها مليء بالنمش، أمها التي تشبهها.. كلتاهما تلبسان قطع كثيرة من الملابس فوق بعضها تزيدهما شبها ببعضهما البعض.

ملابس قديمة، و بيجامات زاهية الألوان،وبراقة،تُشبه ملابس مروة مُهرجي السيرك.

و أمها جلباب ملون فيه ورد أحمر،أو بنفسجي، أو برتقالي.

فيه رقع، و بقع تتصارع مع بعضها، يفض الشجار بينها طرحة سوداء تهدئ الثورة التي تندلع داخلك حين النظر إليها!

- ماهي طول عمرها بتضربك.. مش جديدة يعني أشمعنى النهاردة اللي واخدة على خاطرك أوي!

-النهاردة زعقتلي،وقالتلي أني قليلة الأدب، وضربتني بالألم!

-عملتي إيه يا شقية؟

-قلتلها أن عم حسين بيعمل حاجات قلة أدب!

-قلة أدب! إزاي يعني؟!

أسالها بسخرية، و ابتسامة على شفتي لا تشجعها على الكلام، و لكنها تستطرد -على أي حال- لتكلم الملاعين من البشر مثلي الذين لن يتوقفوا في يوم من الأيام على النظر إليها بدونية و احتقار إلى كلامها هي، و والدهّا حتى حين جاءتا إلى المستشفى أول مرة، و كانت أمها تشرح حالتها المرضية!

-بيمسكني من حتت غريبة.

قالتها، و لم تحمر وجناهّا بينما أحمرت وجنتاي غضبًا، أحسست أن الدم بدأ يصعد إلى وجهي ليحتقن في أوعيتهما.

-غريبة! غريبة إزاي برضو يعني مش فاهم؟؟!

تنظر إليّ بعينتيها النصف مغلقتين اللتان لم أتبين حتى الآن ما هي طبيعة لونهما بالتحديد، و رموشها الطويلة.. الطويلة جدًا.

بدون تعبير واضح على وجهها،وكأنها تكلم أحمق، وليس طبيبًا محترمًا في تلك المستشفى.

تشير إلى صدرها الذي يبدو و أن ملامح النضوج بدأت تبدو عليه في سن صغيرة مما زاد احتقان الدم في عروقي.

ثم تشير بسبابتها إلى الخلف ما تحت ظهرها ببراءة،وهي مازالت جالسة في مكانها،وتحرك رجليها بعنف،وشقاوة، وكأنها موسيقى تصويرية.

-أتكررت الحكاية دي كتير؟

-ساعات كل مرة كان بييجي فيها معانا يوصلنا المستشفى.

-...

أعرف حسين هذا، فقد رأيته بضع مرات معهما، أنه رجل يبدو و كأنه في أواخر الأربعينيات من العمر، لديه بعض الشعر الأبيض،نحيف،يهتم بملابسه قليلًا،عينتاه حمراوان،يبدو وكأنه يدخن الحشيش، يبدو فيهما المكر، كان مثل واحدًا من هؤلاء الرجال الذين لا يقلمون ظافر الإصبع الخنصر عن عمد!

هؤلاء الذين ينطقون كلمة (صفر) (سفر)!

عرفت من أول وهلة أنه ليس بالشخص السهل، ولكني عرفت، و لم أعرف لأني لم أهتم يومًا بالنظر إلى أمثاله من البشر، الذين يوجد منهم الآلاف في المستشفى كل يوم.

من هذا كي أهتم به!

و لكني فقط شعرت بسحابة فوق رأسي من عدم الارتياح في المرة الوحيدة التي أجبرت نفسي -بالصدفة- على النظر إليه.

لم أسال مروة: ربما لم يقصد؟

لأني متأكد أنه يقصد! فلو كنت مكانه، أي لو كنت حسين جارهم، صاحب العينين المليئتين بالخبث؛ لربما كنت فعلت المثل فمروة -صراحة- مغرية.

و لكن لا يحق لأي شخص أيًا كان أن يتحسسها!

-ماشي يا مروة أنا هتكلم مع مامتك، و أوعدك أن دي آخر مرة يعمل فيها كدة، و لو أكررت الحكاية دي تاني تعالي قوليلي لإنها غلط أوي أنتي فاهماني؟

تبتسم.. لتظهر أسنانها المسوسة الأمامية التي تغطيها الشيكولاتة، و تغطي شفتيها المكتنزتان التي عشقت رؤيتهما، و لمسهما و أنا أمسح الشيكولاتة من عليهما، و تنهض من الكرسي برشاقة رغم ثقل وزنها، و تركض في خفة مبتعدة عني خارج الحجرة.

الحجرة الضيقة الرديئة التي يكمن فيها مكتبي القديم من معدن صدأ، و عليه ركام من الأوراق، و الكتب الطبية القديمة من أجل رسالة الدكتوراه، و يحيط به جارين آخرين من المكاتب الصدئة الرديئة، أحدهما هو مكتب كريستين هي زميلتي و أنا حبيبها إذا اصطبحت بوجهها صار صباحي كالليل في العاشرة مساءً بدون مبالغة، أتعمد القدوم في الصباح الباكر جدًا إلى المستشفى كي أصل قبلها فلا تكون أول شخص يبدأ مع وجهه نهاري.

بينما أنا شارد أفكر في مروة الجميلة، يعتريني غيظ من ذلك المنحرف حسين.

تدلف الآنسة الدكتورة كريستين -التي فاتها قطار الزواج، و لم يعطها تذكرة حتى للركوب- إلى داخل الحجرة، أقسم أني أسمع وقع خطواتها الضخمة قبل وصولها بدقيقة على الأقل، أشعر بها أشم رائحة شعرها الذي لا تغسله -كما أعتقد- سوى مرة واحدة في الأسبوع كي توفر في ميزانية مصففة الشعر.

تدخل تهز مؤخرتها الضخمة، و يديها في داخل جيوب المعطف الأبيض مما يجعله ضيقًا ملتصقًا أكثر بجسدها، مما يُبرز مؤخرتها بشكل فاضح.

هل اعتقَدَت يومًا أنني ربما أكون مفتونًا أو فتنت بتلك المؤخرة؟!

لا أفهم لما كلما تدخل إلى حجرة المكتب و أكون موجودًا تضع يديها في جيوب المعطف؟!

-صباح الخير.

أرد ردًا مقتضبًا، و كأنه توجد عقوبة ما لمن ينطق أكثر من خمس كلمات في اليوم.

-صباح الن...

تبتسم لي، و تتجاهل احتقاري، و تجاهلي لها هذا الصباح —و كل صباح، و كل دقيقة، أو ثانية بيننا- وتمنحني ابتسامة كبيرة لتظهر زوجا أسنانها الأمامية غير المنتظمة، و كأني قد ألقيت على مسامعها لتويّ قصيدة الغزل الصريح للأعشى:

ودِّع هريرةَ إنَّ الركبَ مرتحلُ

وهل تطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ؟

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضها

تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحلُ

كأنَّ مشيتها من بيتِ جارتها

مرُّ السحابةِ، لا ريثٌ ولا عجلٌ

-إزيك يا عزيز، عامل إيه النهاردة؟!

-يعني هعمل إيه يا دكتورة كريستين! مش دة السؤال بتاع كل صبح يعني هلحق يحصلي إيه في خلال أربعة وعشرين ساعة!

أقصد أن أناديها بلقبها يا دكتورة كي لا أزيل الرسميات بيننا.. لأول و هلة تشعر أنني أناديها بدكتورة للاحترام، ثم يبدأ سيل الإهانة من فمي.. فمي صاحب الأسنان المنتظمة فلقد عانيت مشكلة في شكل أسناني مثلها تمامًا في طفولتي، و لكن

أهلي كانوا أكثر وعيًا، أكثر رقيًا، أكثر مالًا.. أكثر اهتمامًا من أهلها!

دفعوا الآلاف ليعالجوا لي المشكلة حينما كنت صغيرًا.

كما أن أسناني بيضاء ناصعة مثل نجوم هوليود، فأنا لدي زيارات منتظمة لطبيب الأسنان من أجل تبييضها.

هي أشياء لا تفهمها كريستين، ولا مروة.

أنظر حولي.. و لا أحد هُنا!

تتجاهل كل ما قلته تتجاهل غلاظتي، و تبدأ في فتح نقاش معي حول ملفات المرضى عندنا.

هي فتاة، لا بل امرأة تقرأ كثيرًا جدًا، وطوال عمرها تذاكر من المراجع الضخمة.

ولا تحتاج إلى معلومات طبية من شخص كسول مثلي، لا تفارق الروايات الأجنبية، و الصحف اليومية يديه طوال اليوم.

أفهم أن نقاشها الطبي معي هو فقط محاولة لبدء حديث بيننا لنتحاور، و ربما مازحتها، أو لامستها، أو قلت لها كفك.

فتحصل على الفرصة لتتلامس جلودنا، وربما أضعف حينها!

أنظر إلى وجهها وهي تتكلم، و أنا أصم أذناي عن ما تقوله عمدًا،

أتأمل ملامحها.. يا إلهي إنها غير طبيعية!

كل يوم عن يوم تزداد سوءًا! شيء غريب بحق.

أتأمل الحبوب الموزعة بالعدل على كل تضاريس الوجه: في الخدود، في الجبهة، في الأنف،في الذقن،حتى أعتقد أنه توجد خلف أذنيها بعضًا منها أيضا!

كيف يمكن لامرأة في منتصف الثلاثينيات أن تظل في وجهها الحبوب بمنظر فج كهذا!

ألا تدرك أني فكرت في الكثير من الأحيان أن أضع في حقيبتها -السوداء، الرديئة الصنع- بخفة يد زجاجة محلول المضاد الحيوي المعالج للحبوب الذي كنت استخدمه في فترة المراهقة دون أن تدري.

فأنا أؤمن أنه مازال فعالًا حتى يومنا هذا، و حتى مع حالات مثل حالتها!

تستمر في الكلام، و الابتسام -في المحاولات اليائسة في الابتسام- و جعل صوتها أنثوي أكثر، و أكثر، و أكثر...

فجأة أنهض من مكاني -و هي لا تزال تتحدث- أقف عند باب الحجرة،وأدير لها ظهري،وهي ما تزال تتحدث، وتتحدث، و تخرج الأُنثى بداخلها أكثر، و أكثر قدر الإمكان.

و حينما يبدأ جسدي بالاختفاء تمامًا من باب الحجرة أصيح بصوتٍ عالٍ: عن إذنك يا دكتورة، أنا رايح أصلي.

-تصلي!

وهي مبتسمة باندهاش تسألني: تصلي إيه؟!

-إيه ماسمعتيش الآدان ولا إيه! حصلي الضهر طبعًا!

..

AM ١١:١٠

شريف عبد الله...

فعلًا، الوقت يمر بطيئًا جدًا هُنا.

أشعر بالملل، كما أشعر بملل دكتور عزيز هو أيضا، والتهوية رديئة، أشعر أن أحدهم أخرج ريحًا.

تشير أصابع الاتهام إلى هذا السيد العجوز، فهو لم يتوقف عن السعال منذ أن ركبنا، و لم يتوقف عن مراقبتي أيضا بعينيه المحتقنة!

ماله هذا!

أتقاذف ميداليتي الأرجوانية في الهواء، أطفأت جهاز الــ i-phone (الاي فون).

لا شيء أفعله.. ينظر إليّ دكتور عزيز متغامزًا على هذا الرجل الثالث.. لاحظ نظراته المتأملة لي هو أيضًا.

أنا: مش عارف ماله.

-ههه دة شكله معجب بيك آخر حاجة يا واد يا شريف! لا يكونش(.....)!

ابتسم للدكتور ولا أرد.

صحيح إن نظرات الرجل تضايقني، و أشعر أنها تجردني من ملابسي، و لكني مع ذلك لن اغتابه، أستغفر الله العظيم.

"هنبدأ ناخد ذنوب تاني ع الصبح يوم الجمعة!"

-شريف أنا معايا الأهرام .. تحب أقرالك حظك؟

-لا شكرًا.

افهم محاولات دكتور عزيز لكسر الملل الذي تخالطه رائحة كريهة في تلك العربة؛ لكني أُدرك تمامًا هذا الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم): من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة!

تلك هي المعلومة الوحيدة التي استفدها من معلمة العربي، والدين (ميس نجلاء).

معلمتي في الثلاث مراحل دراسية في مدرستي الثانوية.

كانت سيدة في أوائل الأربعينيات من العمر...

في الواقع كانت سيئة في نظري جدًا لدرجة أني اعتقد أيضا أها كانت حتى أسوء من وفاء أمي!

وهل يوجد أسوء من أمي!

استغفر الله العظيم...

كل صباح كانت تطل علينا في الفصل بوجهها الأحمر (المنوفي)، و عينها الخضراء، كانت قصيرة القامة جدًا، و تُغطي

رأسها بإيشارب مثلث الشكل، قديم الطراز، و قديم في نفس الوقت!

أدركت أنه خارج عن الموضة، بالرغم حتى من نظرتي التي لم تكن مكتملة عن الحجاب بعد أبيض اللون من الستان، والخيوط تنسدل منه.

كانت دائما تمسك بمناديل ورقية وهي تشرح، تبصق فيها بين الحين و الآخر، و تتبقى بقايا بيضاء صغيرة على فمها.

و ربما كانت حركة غير إرادية فلا أُصدق أن كل تلك الكمية من البلغم ممكن أن تخرج من فم إنسان آدمي!

يا له من سؤال يشغل بالي منذ عشر سنوات!

هل أسال دكتور عزيز الآن؟!

المهم أنها كانت دائمًا تعتقد أنها خفيفة الظل، تُلقي بنكات، وتضحك عليها بصدق،ويضحك معها الطلاب المتملقين دائمًا لها، و لابنتها بابتسامات، أو ضحكات حتى صفراء، ولا أدري ما الداعي!

فلم تكن هنالك سلطة تُذكر في يد تلك السيدة التي لا يتجاوز طولها المتر والنصف!

كانت حصتها كابوسًا رهيبًا، كانت ابنتها طالبة أيضًا معنا في نفس الفصل.

تبدو نسخة مُصغَّرة عن أُمها، ولها نفس الوجه الأحمر المنوفي و لكنه أنضر، و نفس العينان، و محجبة أيضًا، و كانت -والله أعلم- بكماء!

فلم أسمعها تتكلم في حياتي سوى مرة!

سمعت صوتًا غليظًا، و لهجته ريفية مثل أمها!

كنت أكرهها بالفطرة، و كانت تشمئز مني هي أيضًا، فلقد كان معروف عني أني أُفسد الفتيان في الفصل،وأُمها تدرِس التربية الإسلامية!

وسروالي الجيتر منخفض إلى مُنتصف منطقة الحوض، وكذلك كان لأمها موقفا عدائيًا مني، و خصوصًا كلما دخلت علينا الفصل لتعطينا حصة الدين.

أهرب و ألتصق بزملائي المسيحيين الذين كانوا يتلقون حصة التربية المسيحية في فصل مختلف.

و كانت تنادي عليّ...

-شريف!

شريف (محمد) عبد الله!

وتشدد على كلمة" محمد".

أبي اسمه محمد، و لكن لأن محمد هو أكثر الأسماء انتشارًا في العالم العربي نناديه باسم جدي عبد الله.

-أنت رايح فين!

كنت أرد: رايح آخد حصة الدين يا ميس!

لا أنسى تلك المرة، حينما دخلت إلى الفصل كالعادة، وألقت تحيتها المعتادة

-السلامُ عليكم.

على كل الطلاب في الفصل المسلمين، و الأقباط، وكلنا دائمًا مُلزمون بالرد.

لم انتبه إلى دخولها فلم أنهض من مكاني واقف احترامًا لها عند رد السلام مع بقية الطلاب.

و جدتها فجأة بصوتها الريفي الحاد تنظر إلى مكاني في آخر الفصل، وتوجه كلامها، بل خوارها مثل البقرة إليّ، و عينيها الخضراء تطلق شرارة بلونها.

-وأنت ماقمتش ليه إنشاء الله يا سي شريف؟ مش مالیين عينك ولا إيه؟!

مش مالیين عينك ولا إيه..

مش مالیين عينك ولا إيه..

مش مالیين عينك ولا إيه!

لا أنسى تلك الجملة أبدًا.. ولا أنساها ما حييت!

الحقيقة أنها -فعلًا- لم تكن ماليه عيني.

لو تعود بنا الأيام كنت سأخبرها لأني أشجع الآن،وأكثر نضجًا، و بلوغًا، و فَهمًا للحياة.

نعم كنت سأنهض من مكاني، و أواجهها، و أُخبرها: نعم مش مالية عيني أيتها القزمة، لا أنتِ ولا أمثالك، ولا حتى بنتك المستكينة تلك (عمركوا مامليتوا عيني).

كنت أعرف أنها تكرهني، لكنها لم تفصح يومًا بذلك، وكانت تواري الكره، والاحتقار بابتساماتها السخيفة كالعادة، لكن هذا اليوم كان يومًا مميزًا في تاريخنا الحافل معًا لمدة ثلاث سنوات. فلأول مرة تفصح عن كراهيتها لي،وتعبر عنها بصوت، وتخرج مكنون قلبها.

و كنت أُردد في داخلي (أيوه اظهري بقى).

يومها نظرت إلي ابنتها شزرًا وهي ترد السلام على أمها مع البقية، و هي واقفة في مكانها عند مقعدها.

لم أرغب في حياتي في البصق في وجه شخص مثلما رغبت في تلك اللحظة في البصاق في وجه ابنتها أولا، ثم في وجه أمها ميس نجلاء.. التي على ما أعتقد كانت خبرة بلا شك في البصاق!!

كانت ميس نجلاء المسكينة تضع آمالًا كبيرة في ابنتها بأنها سوف ترفع رأسها عاليًا بنتيجة مشرفة في الثانوية العامة تجعل

رأسها المنخفض نتيجة لقصر رقبتها مثل سائر جسدها يعلو لتطويلها مثل النعامة.

ولكن والحمد لله خذلتها الفتاة بمجموع منخفض،و لم تصبح طالبة في كلية الدكتور عزيز كما تمنت الأم.

يومها عرفت أن النعامة لم ترفع رأسها عاليًا محمولًا على الرقبة الطويلة بل نكسته في الأرض، ودفنته في الرمال!

لِمَ مازال ينظر إليّ؟! ألم يسمع الحديث الذي دار بيني أنا، ودكتور عزيز؟! ألم يسمع تلك الكلمات المرعبة..

إدمان حقن.. بضرب حقن.

أنظر إليه، فيعطيني ابتسامة مجعدة حين يلاحظ مبادلتي للنظرات المتأملة معه.

هل من الممكن من فضلك أن أعرف لِمَ تُحدق فيّ طوال الوقت؟

انطقها فجأة وتلقائيًا، لا أدري من أين جاءتني الشجاعة لأسال! لكني سألته على أيّة حال...

-نعم ...؟

-حضرتك منذ أن ركبنا هنا، و أنت لم تتوقف عن التحديق فيّ، و نظرات ضايقتني قليلًا في الحقيقة!

-آه أنا آسف.. لقد كنت شاردًا يا ابني.

-حضرتك هل سمعت ما كنت أقوله أنا والطبيب منذ أن ركبنا؟

-لا في الحقيقة أنا كنت شارد فعلًا.. هل حضرته دكتور؟! هل كان هنالك شيئًا مهمًا في حديثكم لا يجب أن أسمعه؟!

-نعم كنت مدمنًا، وهذا طبيبي المعالج!

-مدمن! يا حفيظ يا رب، و لكن كيف...

سددت أذناي عن بقية كلامه، وضعت السماعات فيهما، و أدرت جهاز الـــ "آي بود" ثانية، كنت أعرف أن أسألته ستتلاحق علي مثل ركاب المترو لحظة وصوله للمحطة.

أرى وجهه يتكلم، و ينظر إليّ فقط كفيلم صامت ثم يبتسم ابتسامة خجولة بعدما يخرجه صمتي.

يلتفت إلى دكتور عزيز، و ألاحظ حركات شفاهه تقابلها حركات شفاه مقتضبة من دكتور عزيز فأُدرك أنه أيضًا غير راغب في الإجابة عن الفضول، و الإلحاح من السيد السام، الذي يبحث عن الإثارة لكسر الملل الذي يشعر به داخل شخصه، و خارجه.

انظر نظرات مؤيدة إلى دكتور عزيز.. سعيد أنه أيضًا أحرج الرجل و لم يمنحه مراده.

كل هذا والمشهد يبدو كفيلم سينمائي صامت لشارلي شابلن. صوت المُرتل يتسلل إلى طبلة أُذني فأشعر أنها ترتجف.

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، و قولوا قولًا سديدًا"

ينظر الرجل إلي مرة أُخرى، ولا يُشيح بنظره عني هذه المرة، و على عكس ما توقعت.. زادت جرعة النظرات، ولكن هذه المرة لم أهتم فقد كنت أنا الواقف وهو القاعد.

أنا الوقح، و هو المصدوم.

و شعرت أنني انتصرت عليه.

أعرف إزعاج بعض المصريين، و تعلمت كيف أُقاومه...

وشعرت أن أحدهم أعاد إلي ثيابي مكوية،ونظيفة، وبدأت بارتدائها قطعة، قطعة ثانية...

و رأيته عار مما سيزيد سعاله سوءًا بلا شك!

و لازال دكتور عزيز منهمك في قراءة الصفحة الأولى من جريدة الأهرام.

لا أدري لما لم أشترِ الصحيفة أنا أيضًا.. لست مُهتمًا بقراءة الصحف، آخر مرة اشتريت صحيفة كانت الدستور، من يقرأ الدستور لا يعني هذا أنه مثقف، ولا جاهل، ولكن أحمد صديقي، و معه البقية سخروا مني وقتها فألقيتها في الشارع.

فالتقطها عامل نظافة ثيابه رثة و لم يلمني على إلقاءها في الأرض، و مضى في طريقه مستسلمًا يلتقط بقية الفضلات.

ركضت وراءه أعطيته خمسة جنيهات، شعرت بخشونة يده وهو يتسلمها مني مبتسمًا،وهو يدعو،و لم أسمع ماذا قال لأني أعرف أن دُعائه غير مستجاب على أيّة حال، و لم يَهُمني يومًا أن أدعو أو يُدعى لي أو عليّ على أيّة حال!

ينظر إليّ أحمد باستهجان.

-هل أنت أحمق!

-خمسة جنيهات يا أحمد ليست بالشيء الكثير!

-لم اقصد الخمسة جنيهات يا عبيط،ولكنك ركضت خلفه كي تعطيه إياهم!أنت حتى لم تشهر بنفسك وأنت منطلق!

-نعم لإنه فقير يا أحمد، هؤلاء عمال النظافة هم أحق الناس بالصدقة.

تحسبهم أغنياء من التعفف.

التفت إليّ أحمد، وجدته منشغلًا بالتحدث في الموبايل، شعرت بحرارة في وجهي،واختناق،وصعوبة في التنفس،حتى أني فقدت الرغبة في إكمال السير.

بالرغم أننا كنا في فصل الشتاء،ولكني شعرت بالرطوبة، والبلل تحت إبطي.

وددت العودة إلى المترل لكن المترل هذه الأيام له رائحة اليوسفي و أنا أكره تناول اليوسفي في فصل الشتاء، فهو علامة مميزة لمصر في هذا الفصل.

أكره أن استقل التاكسي ولا أدرك كم يتوقع مني السائق في نهاية المشوار! أكره أن أدخل أي محل وليست لدي رغبة حقيقية في الشراء ويلاحقني البائع، أو البائعة الجميلة ويحرجني، و أخرج و أنا لا توجد سوى كلمة ميرسي على لساني!

و أكره أن أقابل في مصر أصدقاء مثل أحمد يستهينون بكل هراء أقوله، و مع ذلك لم أكن أطيق صبرًا الابتعاد عنه.. ظروفه متشابهة معي.. زملاء في نفس الجامعة.. أهله مسافرون خارج مصر، و تعتبر الرقابة تقريبًا غائبة عنه.

المال كثير في محفظته..مستواه الاجتماعي،والمادي يُشبهني.. خفيف الظل،وغالبًا ما كان يُضحكني،علمني الكثير من العادات أغلبها سيئة، أبسطها التدخين، البحث عن المقاطع المحذوفة من الأفلام السينمائية على الإنترنت،وانتهاءً بإدمان الهيروين.. و لكن هذا لا يهم فلم نعد أصدقاء الآن، و لم أسمع عنه أي خبر تقريبًا منذ عام! هل شرده الإدمان مثلي؟ هل اكتشفه والداه وعادوا من سفرهم لأجله؟ أو هل طردوه من البيت؟!

آمل هذا، فهو يستحق الطرد، هو خطر على المجتمع.

كم هو شخص سيء!

لا أعرف كيف هو نمط التربية التي تخلف شخصًا كهذا!

وكم كانت تكرهه جدتي، و تدعي دومًا أني نائم كلما حاول الاتصال بي على هاتف المترل.. جدتي العجوز المنحنية تعاني من الروماتيزم في مفاصلها، ولا يمكنها المشي كثيرًا، أو التحرك في المترل بخفة، أو تسلق السلم لتنظيف النجفة!

وهي لا تعترف بذلك، تقيم معي منذ أربع سنوات، منذ أن سافرت أمي للإقامة مع والدي في الكويت هي وشقيقاي الأصغر مني. طوال فترة الجامعة معي، تغسل ملابسي، تطهو طعامي، تراقب جيبي كم أنفقت وتشي بي عند والداي، كنت أتحملها فقط لشدة الشبه بينها وبين وفاء أمي، كنت أكرمها فلا يغمض لي جفن أو أخرج خارج المترل دون أن تكون الثلاجة عامرة بالطعام فهي أكول، و وزنها زائد، تُحبني ولكنها تنكر ذلك، فهي تُقدس الأحفاد من الذكور، و أنا وأمي نُدرك هذا، وصوتها أخنف، بالرغم من أنها جدتي كنت أراها في كثير من الأوقات كطفلة صغيرة حين أرى الاكتئاب واضحًا على وجهها إذا راحت في النوم العميق، و شخيرها المميز، وفاتها إحدى حلقات مسلسلها العربي المفضل.

كنت أرى فرحتها بالهدايا، و بريق عينيها كالصغار بالهدايا البسيطة التي كانت أمي تحضرها لها في الأجازات عند العودة من السفر.

كانت هداياها بسيطة لأني كنت أحظى أنا بالجزء الأكبر، و أحيانًا كنت أشعر بغيرة جدتي مني! و لربما كنت أتوهم!

كانت جدتي تنفق بحذر، و تأكل في بيتنا بحذر، و كثيرًا ما تكرر على مسامعي أن هذه الأموال ليست لوفاء، فوفاء لا تعمل، ولكنها من أبي، و أبي ليس ابنها..و ابنها أصلًا لا يتصل بها، و لا يُعطيها مالًا، و هي لا تحتاج إلى المال فقط من أبنائها، و الأبناء إذا كانوا جاحدين فهم مضيعة للعمر،وهلاك للجسد، و الجسد أكثر ما يجب المحافظة عليه، ومحافظة القاهرة صارت مزدحمة و الازدحام يخنقها!...الخ.

لم تكن تتوقف أبدا عن الكلام، كانت تبدأ بموضوع، وتدخل في الآخر لم أكن دومًا في مزاج يسمح لي بالاستماع إلى ثرثرتها، كانت تشعر بالوحدة، فهي بدون أصدقاء بعدما أغلقت الأرض على أصدقاء العمر أبوابها، و قيدتهم بالتراب، وجدي توفي منذ سنوات طويلة، وخالي الوحيد مهاجر إلى بلجيكا ولا يزورها حتى في الأعياد، و وفاء ابنتها الوحيدة تخدم زوجها في الكويت بروحها و دمها.

و أنا حفيدها الأكبر، الرجل الذي وجب عليه تسليتها، والاهتمام بها،ولكني كنت دائمًا أشعر بالاختناق معها، كانت تخنقني فتحات أنفها الواسعة، تلتهم الأكسجين من هواء المترل.

وصلت بي الحال لدرجة أني كنت أحيانًا أتجنب المبيت في المترل كي لا أعود وأراها هي! و أشتم رائحة اليوسفي.

كنت أتركها تنام في الشقة الواسعة وحيدة رغم معرفتي أنها وفي هذا السن لا تزال تفزعها العفاريت!

و قصص الجن التي كانت تستمع إليها صغيرة، و كانت تحكيها لي كبيرة! يرعبها الظلام، وتقتلها الوحدة.

و فكرة أن تنام في غرفتها وحيدة، و تسلم روحها إلى الله ولا أحد إلى جانبها كما حدث مع جدي رحمة الله حينما كانت الأسرة كلها في عرس، و تركوه مريضًا يرقد في الفراش، وعادوا أيضًا ليجدوا روحة سلمت إلى بارئها من نحو الثلاث ساعات، وتيبس جسده بينما كانوا يتناولون الجاتوه!!

كنت أعرف نقاط ضعفها كلها، كنت أدرك تمامًا ما يخيفها، وما يطمئنها، ما يبكيها، و ما يسعدها. كنت أعرف فضلها عليّ، فكثيرًا ما كانت أمي تحكي لي كيف أنها كانت تطعمني و أنا صغير، بينما كانت وفاء تعمل، و كيف كانت تُغَيِّر لي حفاضاتي المبللة غير ممتعضة، ولا مستاءة من إسهالي المتكرر.

و مع ذلك لم أكن أشعر بالامتنان لها، كنت أشعر أنها حمل ثقيل، و مسؤولية تُلقى على كاهلي، و كاميرا مراقبة لا تنفذ بطاريتها أبدا!

وحينما كنت في عرس أحد أصدقائي، و بينما كنت آكل الجاتوه.. لفظت أنفاسها الأخيرة!

و حين عدت إلى المترل وجدت التلفاز مدار على مسلسل ليالي الحلمية، مسلسلها المفضل الذي شاهدته كثيرًا وهي باردة الأطراف، وترتدي خمارها الأبيض للصلاة، و نصف جسدها السمين على وشك السقوط من على السرير المستلقية عليه.

حينها تذكرت أخي الصغير حينما كانوا يتناولون (كفتة) بالروبيان التي كانت تبرع في عملها.. بينما كنت أشاهدهم فلدي دومًا حساسية من الروبيان، و يصيبني بالقيء.

-تذوق.

-لا سأتقيأ بالتأكيد، ربما أجربها حينما أكبر.

-ربما لن يمهلها القدر!

منذ يوم وفاتها، و هناك غرفتان مغلقتان في المترل، لا يمكن أن أنام فيهما غرفة والداي لوجود مرآة بها، و الغرفة التي ماتت فيها لأني أؤمن أن الجن سكنها!

في العربة الخالية نسبيًّا يمر الوقت بطيئًا فعلًا، و خاصة في حالة الندرة النسبية، والفعلية للفتيات هنا الآن. أذكر أنني في آخر مرة استقليت فيها المترو كانت ليلة الأول من أمس في حوالي الساعة العاشرة مساءً.

أستغفر الله العظيم!

فتاتان مختلفتان يقع هذا الحديث بينهما، واحدة منهما منتقبة نقاب لا ترفعه أبدًا، و أخرى صديقتها هزيلة الجسد بيضاء شاحبة الوجه ومحجبة، و أكثر ما أثار انتباهي فيها أن كعب إحدى زوجي حذائها مكسور!

تقول متفاخرة لصديقتها المنتقبة، وفي عينيها نشوة غريبة لم أرها لأني أغض من بصري "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم" حتى مع هذه الهزيلة!وكنت أعرف أنها تبتسم،وهي متأكده تمامًا أني أسترق السمع إلى حديثهما مما زاد من تفاخرها، وعلو صوتها! كنت اسمع فيه نغمة عالية من "الانشكاح"واختيار الألفاظ بدقة التي تثير غيرة صديقتها، و اندهاشي في نفس الوقت وتظهرها كم إنها شيء غالٍ في نظرنا، و مطلوب.

-إنتي عارفة؟ (ترتسم ابتسامة نصر على شفتيها،وهي تتحدث عن خطيبها وهي المرة الثانية التي اختلس فيها نظرة إلى وجهها المصري الشاحب) آخر مرة جالنا فيها جابلي إزازة بارفان كدة حمرا و ريحته جميلة، بس أنا بقى رميته وقلتله جبتلي بارفان، بارفان بس يا معفن!

قلت لنفسي معفن كلمة بذيئة!

لربما تهيأت أني سمعتها لتويّ!

أستغفر الله العظيم!

أقرأ في الجريدة هذا الخبر: شركة سعودية تعرض ١٢٥ مليون جنيه إسترليني لرعاية نادي مانشتر يونايتد!

فأرددها أنا أيضا: بارفان، بارفان بس يا معفن!

ترد عليها صديقتها المنتقبة بصوت منكسر و أقسم أني سمعت صدى الغيرة فيه، أقسم أني شعرت بترقرق دموعها تحت النقاب! و انسياب مخاط من أنفها، كنت أريد أن أتحسس النقاب

أتحسسه فعلًا بدون حرج لأتأكد كم هو رطب!

-امم رميتيها في وشه.. وشه!

قلت في سري: نعم قالت في وجهه يا أختي! و لم تقل قفاه!

-ليه شكلها رخيصة ولا إيه ماصعبش عليكي؟! ومن يتق الله يجعل له مخرجًا!

ابتسمت لنفسي مُرددًا:ربنا يجعلك مخرج إنتي كمان الواضح إن صديقتك وجدت مخرجها خلاص!

-أيوة بس أنتي عارفة ...الخ

تكمل حديثها

أنهض من مكاني، و أنزل في المحطة التي توقف فيها المترو، و حينما يصبح جسدي خارج المترو تمامًا أدير وجهي له قبل أن يهم بالانصراف.

أرى نظرة دهشة، و صدمة على وجه الفتاة الشاحبة تنظر إلي من خلف الزجاج.

غير مصدقة أنني انصرفت قبل أن أتم سماع بقية الحديث الشيق!

آخر مشهد لها في مخيلتي، و المترو يتحرك، و فمها مفتوح لآخره، بينما صديقتها المنقبة بدأت تشهق في البكاء بصوت عالٍ حتى أنني بدأت سماع صوت نحيبها فعلًا من مكاني!

..

AM ١١:١٤

الأستاذ عادل رضا...

(الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَة وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

ابنتي الكُبرى أكبر أولادي انتقبت، و تعمل في الدعوة حيث أنها توزع مطويات كما أمرها الشيخ في شريط الكاسيت على الفتيات غير المحجبات، أهملت دراستها من أجل المهمة السامية لا تقرأ كتب الإمام الغزالي، أو دكتور محمد عمارة، ولكنها مع ذلك لديها كل الثقة بأنها مثقفة!

بسم الله الرحمن الرحيم

-آلو.. خديجة (سمّتها عام ١٩٨٩ خديجة إرضاءً لأُمي، ومجاملة لخديجة أختي، و حين أصبح عمرها سنتان،تذكرت أنه اسم سيدة المؤمنين أيضًا!) مامتك مش مبسوطة منك ليه؟ بتقول عليكي مهملة في دراستك.

-السلام عليكم.. إزيك يا بابا (ممتعضة) مهملة في دراستي إزاي يعني؟!

-يا بنت إتكلمي مع أبوكي بأدب يا بنت، أنا بقولك كدة عشان مصلحتك أنا مش عدوك.

يا لحسرتي عليكِ يا خديجة...

لِمَ يا بُنيتي؟! كيف أصبحتِ قدوة سيئة لإخوتك؟! أو لم أُربيَ! لا أنا غائب و لم أربي..

خديجة تنقبت، و لكننا أنا و أمها ندرك أنها لم تلبسه بدوافع دينية، بقدر ما أرادت أن تكون لها هوية..فمازالت تنام عن صلاة الفجر، و تجمع ما بين صلاة العشاء، و المغرب في جوف الليل،وتصلي مثل مشهد فيديو بالتصوير السريع،وتغتاب البشر،وتستمع إلى الأغاني،وتحدث شابًا على الإنترنت، وتؤمن كل الإيمان أنه سوف يأتي لخطبتها،وأهملت دراستها، ورسبت في مواد الفصل الدراسي الأول من كليتها النظرية.. أؤمن بأنها لبسته حتى تصبح خديجة الفتاة المعتزة بنقابها، والباغية رضا الرحمن!

الأفضل لكلينا أن أعود يا خديجة، أعود لأرض الوطن.. أرعاكم و أُثرثر معكم حتى الممات...

محظوظ هو من يتذكره الموت، و هو يجلس في مقعده يتوسط أبناءه!

حكوا لي يا خديجة أنكِ حينما كنت في زيارة لخالتك.. لم تكشفي وجهك قط أمام زوَجها، ولا أبنَائها الصبيان المراهقون الأصغر منكِ بسنوات، وضعتِ النقاب فوق رأسك،و وجهك، و لم تظهريَ حتى عينيكِ.. و لبستِ على جسدك البيجامة

الزهرية الضيقة بالرغم من أنكي ممتلئة من الأسفل! أولاد خالتك الذين حتى العام الماضي كنتم تنامون إلى جوار بعضكم البعض في المصيف!

حكوا لي يا خديجة حينما اختبأتِ خلف باب المطبخ، وكورتي جسدك مثل الكرة حينما وصل زوج خالتك إلى البيت على غفلة بينما كنتِ تتناولين غدائك بنهمك المعتاد في مطبخهم من أوعية الطبخ، لا الأطباق!

وكان يدفع الباب معتقدًا أن الذي خلف الباب هو ابنته تمازحه بدفع الباب ومنعه من الدخول!وكيف صرختي وقتها بانكِ خديجة! وكيف أحرجته، و أحرجتِ نفسك!

هداكِ الله يا خديجة!

أصدقائي القُدامى رفقاء الغربة، و رحلة الكفاح.

أين أنت الآن يا محمود؟!

كيف لم أتمكن من رؤيتك قبل وفاتك! عله خير!

لم كل من يغترب هناك تحل عليه لعنة الموت، وعلى أبناءه اليتم؟!محمود صديقي أقمت في شقته شهورًا، و نام عندي ليالٍ زميلي في العمل.. الطيب النشيط المفعم بالأمل.. أحمر الوجه، ولديه بيت كبير في قريتهم، وله خمس بنات أكبرهم تصغر خديجة بسبع سنوات! أتذكِرك يا محمود حينما رفضوا

تجديد عقد العمل معك بعد أن حللوا دمك و وجدوا الفيروس اللعين التهاب الكبد الوبائي فيه، و كيف كنت مكفهرًا و وجهك مسودًا و هو كظيم. كيف كنت مصدومًا كنت تبكي وكنت أُهدئك.

و كنت تحسدني أني مازلت ولازلت حتى هذه اللحظة هناك.

ثلاث أعوام تمر يا محمود الأشقر، ولا أسمع عنك شيئًا، و لم تواتني الفرصة لأتصل برقم هاتف منزلك القديم الأغبر.. والمكتوب بخطك بحبر جاف في ورقة بيضاء صغيرة مهترئة ابتلت ذات مرة و أنا أتوضئ، وكدت أفقد الطريق إليك الأبد بسبب ذلك البلل.

ثلاث أعوام ولم تتملكني الرغبة في إخراج الورقة من محفظتي، و ربما بدافع الكسل!

وحين طلبت الرقم يا محمود لأول مرة منذ أن أعطيتني إياه يجيبني صوت الهاتف الآلي "الرقم الذي طلبته غير صحيح" وبداخلي أحسست براحة نفسية لذلك!

وفي اليوم التالي أعيد الكرة في نفس الوقت، و يجيبني صوت زوجتك الجميلة أم البنات الصغيرة في السن، و التي كانت تصغرك بسنوات عديدة.

-السلام عليكم أنا أستاذ عادل رضا كنت زميل محمود في الغربة والعمل منذ ثلاث سنوات.. كيف حالك؟! هل لي بمكالمته؟!

-لا يمكنك مكالمته...

-عله خير؟!

-محمود رحل

-إلى أين؟!

-إلى الأبد.

-كيف ومتى؟!

-منذ عام، كان مريضًا ولهذا السبب تم ترحيله إلى مصر.

محمود رحل! و ببساطة رحلت يا محمود! و تركتني في هذا العالم كي أعاني أكثر، لقد تركتني وحيدًا بالرغم من أني لست وحيدًا. يا ليتك ودعتني، إن كنت قد قمت بوداعي فلربما عندها كان الأمر ليكون أسهل، و لكنه سهل أيضا الآن فلست مصدومًا جدًا!

هل تتوقع مني الآن يا محمود أن أزور بناتك الخمس في قريتكم، و أسال عنهم و كأنني أنت؟! بالطبع سوف أفعل، نعم سوف أفعل ولكن ليس اليوم، ولا أدري متى، و ربما لن يحصل! أشتاق إلى عينيك الزرقاء الآن، و وجهك الأحمر!

الشعب المصري الطيب لست أكرههم فليس بإمكانك أن تكرههم و أنت منهم، ومازال النسر الأصفر يجمع بينك، وبينهم على جواز السفر الأخضر! ليس بإمكانك أن تضل الطريق إلي جهة ترغب الوصول إليها في القاهرة، فحين تتعثر هنالك المئات ليساعدوك بل يتنافس المئات منهم من أجل المساعدة الأنبل..ليدلوك على الطريق الصحيح،وكيفية الوصول إليه بضمير! و تتعالى الأصوات الغليظة والحادة معًا، و تختلط الروائح، و الأرواح!

تبتسم الأفواه ذات روائح النفس المختلفة الكريهة أو الكريهة! تشعر بأنك ضائع وسط الحظيرة، و الوجوه المتعرقة في منتصف الظهيرة، وتشكرهم وترحل.

..

AM ١١:١٤

د.عزيز كامل محب...

لست واثقًا تمام الثقة إني استحق حرف الدال قبل اسمي

-أخبرتك يا عزيزي عزيز أن تذاكر شهادة أجنبية وترحل..

-فاااادي باشا حبيبي! أين أنت يا رجل، لم نتحدث على الانترنت منذ أكثر من عامين! ولم ترسل لي حتى بريدًا إلكترونيا أو رقم هاتفك هناك!

-اشتقت لك يا رجل.. يعلم الله كم أنا مشغووول.

-أما أنا فقد نسيت شكلك!

-أسمر.. ضيق العينين.. طويل.. وهنالك ندبة على خدي الأيسر.. عريض المنكبين!

- مازلت ثقيل الظل لم تتغير! هل أنت سعيد هناك يا فادي؟!

-نعم سعيد.. أفتقدكم.. لكني لا أفتقد الوضع عندكم، لا أفتقد الجامعة و الأستاذ فلان المتسلط ، ودرجة الحرارة الأربعين مئوية في شهر أغسطس!

-لا لست سعيدًا!

-بلى

-كنت هناك، و البلد كئيب لا يحترمون الملونون.

-لا يهم.

-أنت اسمر البشرة.

-لا تكن أحمق تعال و سأساعدك.

-لا أقدر.

-لماذا؟!

-أبي...

-فقط؟!

-بلى، و شقة الدقي أيضًا، إن رحلت سيأخذها أخي حتى قبل أن أربط حزام الأمان في مقعدي في الطائرة فهو يترقب الزواج بفارغ الصبر.

-أحمق.. طوال عمرك أحمق.. ما يمنعك من الرحيل أبوك، و الشقة ألا تفتقد أمك؟!

-رحلت.

-رحلت!

-قرابة عام مر على الأمر أكثر من عام.

كانت بيننا وردة متفتحة معتاد وجودها في المترل مثل التلفاز راقبت ظهور التجاعيد في وجهها الأبيض الجميل على

مر العقود في أوائل الثلاثينيات، كنت صغيرًا و لم ألحظ كم كانت جميلة، و بيضاء، و خصرها نحيف، و حينما كانت في أواخر الأربعينيات من العمر، راقبت تغيرات جسدها الظاهرة والفسيولوجية معًا وانقطاع الطمث عندها، و اكتئابها، و الثنايا في ووجهها،وطموحها،وسناليأس،وابتسامتها،وطريقتها المميزة في التهام الطعام، و جموحها.. لم تتوقف عن الاهتمام بي طوال عمرها دون أن تدري.. لم أعد يومًا إلى المترل دون أن أجدها قد طهت شيئًا ساخنًا من أجلي.. لم أتخاصم معها يومًا إلا ودخلت إلى غرفتي تُصالحني. لم أمتنع عن الطعام إضرابًا لعدم تنفيذ مطالبي إلا وجاءت في الفجر تطعمني نفس الوجبة كل مرة ساندويتش الجبن المحفوظ مع كوب الحليب الكامل الدسم.

و أنا التهم الطعام بنهم.

و أنا مغيب في النوم لا أرى وجهها،ولكني رأيت ضحكاتها لمنظري في الحلم!

كانت نادرًا ما تُقبلني أو تحتضنني من الخلف.

فقد كانت لنا طريقة متحفظة في إظهار المشاعر والقبلات في بيتنا ضعف!

رأيت معاناتها مع مرض السكر،وارتفاع ضغطها، وتقلبات عينيها ضدها، و انهيار وظائف جسدها الحيوية، و أعضاءها وعدم اكتراثي أو اكتراث أبي وشقيقي لها، واهتمامها بنا، و نسيانها لمرضها من أجلنا.

و كمية حقن الأنسولين المستعملة.. الكمية المهولة المتراكمة في سلة المهملات في حمام بيتنا.

و مدى الاشمئزاز الذي كان يرتسم على وجه أخي الأصغر الذي يشبهني كلما دخل إلى الحمام ليتغوط!

استيقظت مرة في الخامسة فجرًا، و كان هنالك صوت آذان في الهواء خارج بيتنا، و مازالت النوافذ مظلمة و لم يبد نور الشمس بعد.

ولكن كان هنالك نور أصفر يتسلل من تحت باب غرفتها هي و أبي على غير العادة فنحن لسنا مسلمون كي يستيقظ أبي ليصلِ الفجر حاضرًا!

وحينما فتحت الباب وجدت أبي يجلس إلى طرف السرير مُطرقًا برأسه، و مرتديا البيجامة، و لم يجبني حين ناديته و خبأ وجهه بيديه الغليظتان و أمي نائمة إلى جواره.

و البطانية ذات الفراء الكثيف التي أهدتها لها أمها حين تزوجت حجبت حتى وجهها عني.

فجأة توقف صوت الآذان.. كشفت الغطاء،وقبلت وجهها الشاحب المثلج برغم ثقل الغطاء قبلة أخيرة، و لأول مرة منذ أن كنت في السادسة من العمر جلست إلى جوار أبي في صمت

ثم دفنت راسي في صدره رغما عنه بعد أن أزحت كلتا يديه عن وجهه، و لم ننطق بحرف.. وكان جسده باردًا مثل وجهها.

توقف الآذان..

و توقف صوت تسرب المياه من صنبور الحمام.

الصوت الذي دائمًا ما أزعجها و أفاقها من نومها في كل ليلة..

و اختفت رائحة أمي من الغرفة.. إلى الأبد!

و حين نهضت من حضن أبي..

كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا

و نظرت إلى النافذة و رأيتها مازالت مظلمة!

..

AM ١١:١٤

شريف عبد الله...

أشعر بالحنين إلى الجام، وهذا المترو لا يريد أن يصل أبدًا وأن صحنا بأعلى أصواتنا لن يسمعنا أحد!

حنيني إلى المسجد يقترب، و يقترب.. نصف ساعة على بدء الخطبة في الجامع الكبير.

لقد تأخرت كثيرًا

اذكر أول مرة ذهبت فيها إلى الجامع.. بيت الله، و لم أكن قد التحيت بعد؛ حينما قرأت حديثًا عن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله:

شاب نشأ في طاعة الله، و رجل قلبه معلق بالمساجد.

مشيت إلى المسجد، حاولت أن أُعلق قلبي هناك.

و لكني حينما سجدت شممت رائحة كريهة للسجادة، رائحة أرجل حافية خلعت الحذاء لتوها،وكاد يغشى على حتى قبل أن أنهض،و حين فرغت من الصلاة كان هنالك ترابًا على جبهتي، وحين بحثت عن حذائي بين الأحذية وجدته قد سُرق!

ثم وجدت قلبي بالتدريج قد بدأ يتعلق بالمسجد بالفعل، حتى أنني في كل مرة كنت أعود فيها من هناك أكون بلا قلب!

كان معلمي الأمريكي، الأسود، الذي يدرسني اللغة الانجليزية -حيث كنت ضعيفًا فيها الذي- أسلم حديثًا منذ قرابة السبع سنوات دائمًا يتصدرني في الصف الأمامي من المصلين، ساقاه متباعدتان يردد خلف الإمام آيات القران بصوت عالي ولكنة غريبة حيث تنتمي أصوله إلى جزر الكاريبي، و إلى جاميكا بالتحديد. و كان يصافحني كل مرة، و يتحدث إليّ بالإنجليزية مما جعلني أحب المسجد أكثر!

في المسجد نحن أصدقاء، إنما في الدرس نحن أصدقاء أيضًا! فهو شخص بشوش، و يحب كل البشر، أرتدي أنا ملابسي الحديثة التي تشبه ملابس (نيويورك) حيث تربى هو، وهو يرتدي الزي الإسلامي الجلباب القصير، و السروال القصير أيضا.

و لم أكن أرى أنه يجب أن يفعل ذلك!

كان دائمًا ما يلقبني بالفتى الأمريكي لنفس السبب.

كان أكثر ما يعجبني فيه هي الثلاثة ثقوب الموجودة في أذنه و التي دومًا يخجل من أنه ثقبها قبل الإسلام!

كان دوما يُخبرنا:

I Love You People... America Is A Place - That I Would Never Like To Go Back ! To....Again

-أحبكم أيها البشر، أمريكا هي مكان لا أرغب أبدا في العودة إليه ثانية!

وفي كل مرة كان يصدمني إذن أن ذهبت إلى هناك يومًا لن أجد أحد في استقبالي!

حكا لي عن حياته هناك، وكيف أنها تُشبه حياتهم في الأفلام إلى حد كبير، كنت أشاهده و كأني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا، أستمع إلى نقده لمصر بترحاب، و أنتقدها معه، و كان هذا يسعده فأنتقدها أكثر!

كان يحب الزغاريد المصرية، و ذات مرة حينما كان يصف لنا مدى انبهاره بها فاجأتنا إحدى الفتيات، القبيحات، المحجبات معنا في الدرس بإطلاق زغرودة غبية، وضعيفة تنم عن عدم الخبرة.

-لولولولوليييييي.

-WOW! I love It Can You Do It Again؟

(يا إلهي أحبها هل يمكن أن تكرريها ثانية؟)

-لولوللوليييييي.

و تكررت زغاريدها مع ضحكاته العالية المخيفة في حدود الخمس مرات قبل أن أنظر إليها نظرة شزرًا تنم عن الاحتقار

الشديد! و كلما ظهرت على وجهه النشوة بما تفعله هي صدح صوت الزغاريد أكثر!

لقد دهشت كثيرًا عندما علمت فيما بعد أنها معيدة في كلية الهندسة!

لا أدري ما السر الذي جعل كل الفتيات معنا في الدرس تغرم به!

أحداهن زغردت من أجله.. إحداهن أهدته كتابا.. و أخرى أهدته حذاءً، ولا أدري كيف عرفت مقاس حذاءه!

أما الأخيرة فقد جاءت يومًا من بيتها الذي يبعد ساعتان عن مكان الدرس في المواصلات العامة متعرقة وهي تحمل معها شيء مغلف تغليفا رديئًا أشبه بفطيرة!

فتحتها أمامنا و أعلنت بصوت عالٍ أن هذه الفطيرة ليست لنا بل من أجله.

ألقيت نظرة خاطفة على الفطيرة من باب الفضول.

كنت أتأملها وهي تردد هذه الجملة في نفس الوقت:

Hey Guys It Is Not For You It Is For - !Him...I Know That You Do Want It Guys

(يا شباب إنها ليست من أجلكم بل من أجله هو.. أعلم بأنكم تريدونها!)

نظرت إلى الفطيرة لأراها عبارة عن شيء مدور لونه أصفر، و كان فوقها ما يشبه الكريمة صفراء، و تزينها الفواكه و أصبع موز كامل في الوسط أسود لونه لأنه قشر منذ مدة!

نظرت إلى معلمنا الأمريكي بشفقة لأنه سيكون مضطرًا لتناول هذا الشيء!

وهو لم يتوقف عن ترديد.

Oh Guys! I love You People ....I love You - !People Thank You

-إني أحبكم يا جماعة شكرًا لكم.

في كل مرة كنا نخرج من باب الدرس كنت أشعر بالإحراج أنني أقود سيارتي الملاكي، بينما هذا الأمريكي المبجل يقفز في الميكروباص. كنت أحترمه هو لأنه الرجل الوحيد عند خروجنا من الدرس بيننا نحن الذكور الذي لم يلتفت إلى مؤخرة أي فتاة عند مرورها إلى جواره على عكس التفاتات رؤوس رجال مصر المعتادة! و في تلك المرة ذهبت إلى سيارتي التي كنت قد ركنتها بجوار صفيحة مهملات معدنية كبيرة في الشارع خدشت السيارة من الخلف، و حين نظرت داخل الصفيحة لم أدهش كثيرًا حين رأيت الفطيرة!

بالأمس تأخرت في السهر مع بعض الأصدقاء في الخارج، ولهذا لم أستطع الاستيقاظ باكرًا هذا الصباح على عكس عادتي

يوم الجمعة من كل أسبوع، عدت إلى البيت قبيل الفجر، و ضاعت علي صلاة الفجر في المسجد! ما أستغربه بحق كيف جاءت أمي إلى هنا ما الذي أتى بها اليوم؟ و لما هي مفاجأة لِمَ لَمْ تتصل وتخبرني بمجيئها هي و أخواي الصغيران اللذان كانا نائمان في الغرفة التي ماتت بها جدتي و سكنتها العفاريت!

جاءت أمي، و أعادت فتح باب غرفتها، أو شقيقاي أعادا فتح باب الغرفة الأُخرى، و الآن استر علينا يا رب.. ستنتشر العفاريت في أرجاء المترل! ثم يعودون هم للكويت، و يتركونها تمرح في الشقة المخيفة معي أنا وهي منفردين!

..

AM ١١:٢٣

أستاذ عادل رضا...

ما الذي جعلني أتذكرك الآن يا محمود؟! و لم يجب أن أستعيد ذكراك، و أسترجع صوتك في أذني، و أحاديثك عن فقرك في طفولتك. كم مرة عددت فيها الليالي التي بت فيها بدون عشاء! أنت، و إخوتك الصغار تنامون ملتصقين ليدفئ بعضكم بعضًا في ليالي الشتاء قارصة البرودة. كم مرة وصفت لي عدد المرات التي بكيت فيها وحيدًا و أنت صغير بدون أن تجد أحد يجفف دموعك و أمك متوفاة. لقد كنت طفلًا يتيم الأم فقير الحال. أتذكر كم الأحذية الرهيبة التي كانت عندك، و أخبرتني أنها عقدة تلازمك منذ الطفولة فلم يكن لديك حذاء تذهب به إلى المدرسة وكنت تستعير حذاء أخوك الأكبر فتذهب إلى المدرسة يوم، و يذهب هو إلى المدرسة في اليوم التالي. وبذلك كنت تحضر في المدرسة نصف العام الدراسي فقط و أخوك النصف الآخر كل هذا ولم تجرؤ أن تطلب من والدك شراء حذاء آخر لأنه كان فقير الحال، و خفت أن يضربك أنت وشقيقك لطلبك هذا الطلب. كم مرة كنت مهددًا بترك الدراسة، و العمل مع أبوك الفلاح (باليومية) أي تقبض أجرك على اليوم الواحد.. في الغيطان وكيف دائمًا كنت تفاخر أنك أكملت تعليمك بمحض الصدفة البحتة، وبركة الإله! أتذكر حينما كنت تحمل طاولة الشطرنج،

وتلبس الجلباب الأبيض الغير مكوي،وتمشي مبتسمًا بيننا تطرق أبواب بيوتنا لنلعب معك دورًا! و أحيانًا نفتح الباب لك وكثيرًا لا نفتح! أتذكرك حينما كنت تحكي لي كيف أنك سهوت، و فتحت صنبور الماء الساخن الذي أحرق جسدك وأنت تستحم!

لا أريد تذكرك مرة أُخرى يا محمود فذكراك تُصيبني بالذنب و الاكتئاب في وقت واحد لما تتلاقى الأحزان في قلبي معًا؟! لما تتوارد الذكريات كقذائف متلاحقة في هذا المترو الغريب. لما نحن في آخر عربة العربة التاسعة حسبما أذكر.. ثلاثتنا فقط ولا نصل أبدا! ربما تفوتنا صلاة الجمعة أو حتى العصر! يا إلهي أريد أن أصل، و أن أنتهي من هنا! هذا الشاب نشيط جدًا، و مفتول العضلات.. إنه لا يكف عن القيام من مكانه والجلوس ثانية. إنه لا يحب المقاعد. مرة يضع السماعات من أُذنيه، و مرة يزيلها.. يبدو أنه تململ، ولا يتوقف عن ترديد الأدعية و ذكر الله.. الله فقط.

يبدو أنه ميسور الحال، و على خلق يا ليتني أجد شابًا صالحًا مثله لخديجة ابنتي.. إنه أفضل على أي حال من هذا الشاب الذي ترغب بالارتباط به عن طريق الانترنت! المجنونة ابنتي! ولكن ما باليد حيلة، و أنا في الرياض العاصمة السعودية البعيدة كل البعد عن القاهرة، كيف لي أن اختار زوجًا مناسبًا لكِ يا خديجة و أنا هنا معزول لا أرى، ولا أعرف أحد، و العمَر يمضي بي، و يمضي بكِ ولا بد من التدخل السريع

لإصلاح الأمور إذا كان القانون المصري المتعارف عليه أن الرجل دائمًا هو من يخطب فلن أخالف القانون إن خطبت أحدهم لخديجة فمازلت أنا الرجل في بيتنا! و لم أبحث عن حلول بديلة؟ و الشاب أمامي ومن الواضح أنه مازال لدينا متسع من الوقت للحديث قبل بلوغ محطتنا النهائية.. عله خير!

هل أنت متزوج؟!

-...

-بني لقد سألتك هل أنت متزوج؟!

-نعم هل تخاطبني أنا؟!

- بالطبع.

-لا لستُ متزوجًا.

-لماذا؟ كم هو عمرك؟!

-٢٦ عامًا

-لست صغيرًا إذن فبإمكانك الزواج الآن، لقد تزوجت وأنا في مثل عمرك تقريبًا.

-حسنا.

-هل أنت مرتبط بإحداهن؟

-لماذا هل لديك عروس من أجلي؟! (يضحك)

- نعم أريد أن أزوجك ابنتي.

-ماذا! ابنة حضرتك؟ولماذا تريد أن تزوجها لي أنا بالذات؟

-يبدو أنك شاب رائع.

-يا سيدي، ألم أخبرك أنني كنت مدمنًا؟!

-نعم لقد كنت تمزح و أعجبني هذا.

-لا أيها الـــ... هذه حقيقة لقد كنت كذلك فعلًا.

-مستحيل!

-أنت شخص مزعج، أنت تُدرك تمامًا أنني لم أكن أمزح، ولكنك ترغب في إحراجي، و لهول الصدمة لم أُحرج فأنا لا يهمني أمثالك من البشر.

-لِمَ تخاطبني بتلك الطريقة.. لا افهم؟!

-أيَّة طريقة ؟!

-طريقة عدائية عيب عليك أنا في سن والدك.

-لا بل أكبر.

-حسنا و لم هذا؟!

-لأني أعرف أنواعك المريضة من البشر، و تعاملت معها كثيرًا، لم تتوقف عن تأملي منذ أن ركبنا وترتني يا رجل! ترقب حركاتي، كلماتي و الآن تطلب مني الزواج من ابنتك، وأنا الذي كنت أظن أن نسخك المريضة من البشر اختفت من المجتمع المصري الآن!

-لا أصدق أنك تكلمني بتلك الطريقة.. ألم يربيك أبوك؟!

-بلى رباني أيها المحترم، لكن يبدو أن أبوك أنت لم يعلمك الكلام، أو التصرف في المترو. ربما لم يكن قد أُفتتح بعد في أيامه!

-لا لقد تجاوزت حدودك يا فتى.

-وإن يكن؟! ماذا ستفعل؟!

دكتور عزيز: اهدؤوا يا جماعة ما هذا.. عيب عليك يا شريف إن تُحَدِّث سيدًا كبيرًا في السن بتلك الطريقة!

شريف: وهل ترى أنت أن أحاديثه معي أو نظراته طبيعية!

دكتور عزيز: إنه لم يقل شيئًا سيئًا يا شريف طوال الوقت يحترمك، عليك أن تكبر قلبك، وعقلك، اعتذر منه يا شريف الآن من فضلك.

شريف: أنا لم أُخطئ وهذا وقت صلاة الجمعة، و لهذا لم أخطئ بحقه لقد تجنبت ذلك.

دكتور عزيز: اعتذر يا شريف.

شريف: لم أخطئ.

د.عزي: بلى.

شريف: أنا آسف يا سيدي.. حاول أن تمسح الدموع من عينيك.

أستاذ عادل: أنا لا أبكي! أيّة دموع.. أنت مثل ولدي ومازلت صغيرًا لذا من السهل أن تخطئ!

شريف: شكرًا، ولكن هنالك دموع في عينيك.. دعني أقبلك!

أستاذ عادل: لا يا ابني أنا بخير لا داعي لهذا.

هذه النهاية يا عادل، أن يهينك شاب في مثل عمر أولادك؟! شكرًا يا مصر.. لم تقدمي لي سوى كل خير آه يا مصر دعيني أبكي.. لا ليس في حضنك يا مصر!

في استقبالي يا مصر، وعند دخولي من باب الشقة تستقبلني زوجتي صارخة بأن البيت فاشل،وأنا هنالك مذعور من أجلهم. خديجة تركت دراستها،والتهت بأشياء أخرى، ابني الصغير ابن الرابعة عشر لا يتصرف كرجل إنه الآن عند صديقه الذي يسكن في شارع خلفنا،ويريد أن يأتي ليسلم علي، ولكنه خائف لوجود كلاب في شارع صديقه يبدو و أنها قد عضت أحدهم، وهو خائف يصرخ لها في الموبايل بأنه لا يمكنه العودة وحده، وهو مرتعب، و مذعور، وعلى وشك البكاء!

زوجتي: انزل جيب الولد يا عادل.

عادل: لم انزل الحقائب من على كتفي بعد.

زوجتي: انزل جيب الولد يا عادل.

عادل: و لم أقبلك بعد!

زوجتي: بقولك انزل هات كريم من عند صاحبه ماحدش هنا حيترل.. خديجة مش راضية تترل تجيبه بالعربية خد موبايلي، ومفتاح العربية أبقى كلمه لما توصل عند بيت صاحبه الكلاب حتعضه!

عادل: أين خديجة لما لم تأتي لتصافح والدها ثم تدخل إلى غرفتها ثانية و سأقبل!

زوجتي: الولد بيعيط في الموبايل روح جيبه أنا في عرضك.

عادل:بيعيط!ولدي حبيبي طفلي قطتي الصغيرة.. عله خير.. عله خير!

أخذت المفتاح، و هرولت ناحية السيارة، و أخذت دقيقة كاملة لا تعرف على سيارتنا فقد نسيت نوع السيارة التي نمتلكها في مصر! أدرت السيارة، و أسرعت، و بالرغم من هذا أخذ الطريق مني وقتًا طويلًا رغم أن بيت صديقه يقطن في الشارع الخلفي، و لكني كنت في أشد اللهفة لأرى قطتي، طفلي الصغير المدلل، رقيق الصوت والشخصية.

وحين وصلت إلى بيت صديقه الذي أحفظه عن ظهر قلب، ركنت السيارة إلى جوار الباب و تأملت الشارع حولي فلم أر

أثرًا لأي كلاب ضالة ثم اتصلت على هاتفه المحمول في أشد الشوق وقلبي يخفق بشدة أني سوف اسمع صوت قطتي الذي لم أسمعه منذ عام كامل طفلي البريء الخائف من الكلاب ما أجمله!

الهاتف يرن من ثم

كريم: آلو أيوة يا ماما.

بصوت رجولي غليظ

عادل: آلو.. همم ممكن أكلم كريم من فضلك؟

كريم: أنا كريم.. مين بابا! أنت خدت موبايل ماما ليه؟!

عادل: ماذا أنت كريم! أنت كريم! ابني كريم؟!

لم أسمع الصوت الطفولي، صوت الفتيات، صوت كريم فلذة كبدي، و لكني صعقت لهذا الصوت الرجولي.. كم تغيرت يا كريم!

كريم: أيوة يا بابا أنت بتتكلم من موبايل ماما ليه؟! أنت هنا في مصر؟! الله! طب أنا نازل حلا.

عادل:ماذا حدث لصوتك يا حبيبي؟! لقد تغيرت.

كريم:ههه انتظر وسترى

يترل كريم ومعه صديقة مودعًا إياه و أنا لم أتمالك سوى أن أشهق و أفتح فاهي لآخره! أهذا كريم؟! كريم ابني؟! من هذا

الرجل الطويل.. الطويل جدًا، ذو الشارب الرمادي الخفيف، شارب المراهقة يربض فوق شفتيه!وأنفه ماذا حدث له؟! وحاجباه كيف صارا بتلك الكثافة!

يقبل كريم علي وهو يضحك و أنا أقف إلى جوار السيارة، يرتمي في حضني.. أو أرتمي أنا في حضنه بالمعنى الأصح ثم ينحني لأسفل كي يقبلني.

كريم :بابا حبيبي وحشتني جبتلي إيه؟! جبتلي الجزمة اللي قولتلك عليها؟! وكذا وكذا وكذا...

عادل: كريم أنا لم أعرفك يا ولدي.. أنا لم أعرفك!

يجيبني و كإنه لم يسمعني لتوه.

كريم: يلا نروّح يا بابا عشان نفتح الشنط!

نعود إلى المترل الذي كانت أنواره كلها مضاءة منذ عشر دقائق. صارت الآن كلها مطفأة تمامًا! فلا نور يظهر من النوافذ من الخارج أو حتى وميض خجول يتسلل من تحت الباب! ربما ناموا؟! لا يمكن! لا أجد مفتاحًا للمترل معلقًا في سلسلة مفاتيحي.. يفتح كريم الباب بمفتاحه فهذا بيته هو وليس بيتي! يفتحه وهو يلهث مثل الجرو الصغير لا بل مثل أبو الجرو! ولسانه خارج فمه ويخبرني انه لا يستطيع الانتظار أكثر من هذا لرؤية الهدايا سيموت شوقًا حتى قبل أن يلف المفتاح اللفة الأخيرة كي يفتح الباب!

الآن نحن الاثنان نقف في منتصف الصالة، والصالة مظلمة تمامًا لا أرى أين مفتاح النور ولا أتذكر مكانه أطلب من كريم البحث عنه.. يضيء كريم النور لأرى محتويات حقائبي مفرغة تمامًا ومبعثرة في كل مكان في الصالة.. فوق التلفاز، و فوق الأريكة، و تحت طاولة السفرة! حتى إني تعثرت في حقيبة اليد النسائية التي أحضرتها لأم الأولاد!

أقف في منتصف الصالة، و أشعر أني على وشك البكاء، لا أصدق أنهم ناموا! ناموا وبتلك البساطة! يعلمون أنني جئت، فقد دخلت المترل ورائحة عطري المميز كانت لا تزال فيه حين ذهبت لإحضار ابني قطني، لا بل والدها من عند صديقه! هل ناموا بتلك البساطة؟! لا صوت في المترل سوى أصوات صفير الجنادب خارجه! نام الجميع حتى خديجة التي حتى لم تراني؟! وشقيقتها الصغرى! ونامت أم الأولاد التي رأتني، و استقبلتني وكأنها لم تستقبلني!

يوقظني من صدمتي الألف في حياتي صوت كريم

كريم:بابا فين الهدايا بتاعتي حاجاتي أنا فين؟!

عادل :دة، و دة، و دة يا كريم.. ودة!

كريم:شكرًا يا بابا.. هخدهم بقى أوضتي جوة تصبح على خير!

عادل:تصبح على خير يا كريم.

بالرغم من أن كريم تركني وحيدًا وجائعًا ليلة رجوعي من السفر، ولكنه على الأقل الوحيد الذي تمنى لي ليلة سعيدة في تلك الليلة المظلمة البائسة مثل البيت !

أنظر على طاولة السفرة، ولكن لا عشاء! لا أصدق! أهرول إلى المطبخ و أنظر إلى الطاولة ذات الكرسي الشاغر في انتظاري الذي ملئه التراب.. لا عشاء!

و أنا الذي رفضت أن احصل على وجبتي في الطائرة متعللًا للمضيفة اللطيفة بأن هنالك وليمة عشاء حافلة في انتظاري في بيتي..

بيتي في القاهرة!

..

AM ١١:٢٨

د.عزيز كامل محب...

ما الذي حدث لي بعد في العام التالي؟! لن تصدق يا فادي..

فجأة منذ شهرين تقريبًا بدأت أشعر بالتعب يسري في كل أجزاء جسدي مع أبسط مجهود.. و أحيانًا ترتفع درجة حرارة جسدي بدون سبب معين، و حين كنت أرتطم بأي شيء بالصدفة تظهر آثار الكدمات على جسدي بشكل أكثر من المعتاد! اعتلت صحة جسدي فكنت أصاب بالعدوى بسهولة حتى أن تواجدت لدقيقة مع شخص مصاب بالزكام! وبالرغم من أني أتغذى بشكل أكثر من ممتاز -و أنت تعرف هذا- لاحظت أنني يبدو و كأنه بدأت تظهر عليّ أعراض الأنيميا، أو فقر الدم، كالتعب الشديد، وشحوب الوجه و الأظافر! وشفتي من الداخل وعينتاي! بدأت عظامي تؤلمني، و لثتي تلتهب، و أنفي يترف ثم بدأت أفقد وزني! حينها تحركت إلى الطبيب لأني أدركت تمامًا، ولخبرتي كطبيب أنه هنالك شيء غير طبيعي في الأمر قام الطبيب بإجراء تحاليل للدم، و اكتشف التهاب العقد الليمفاوية تحت إبطي.. و حينما ظهرت نتيجة العينة المأخوذة من نخاع العظام كان قلبي يرتجف، و يبكي،

و يجفف دموعه ليعود إلى البكاء ثانية،ويكتشفوا أنني مصاب بسرطان الدم أو اللوكيميا من النوع الحاد،وشعرت عندها أنني تبولت في سروالي الذي صار واسعًا علي بشكل غريب حتى حزام خصري صار مقاسه كبيرًا، وصار لسانه يدخل في ثالث ثقب فيه بعدما اعتاد دائما الاستقرار في آخر خرم! ويخبرني طبيبي الذي هو صديق عزيز على عزيز أيضًا أنه يستغرب كيف أنني لست محظوظًا بالمرة.

فهذا النوع من اللوكيميا نادرًا ما يصيب الأشخاص في سني ممن هم تحت الأربعين! ولكنه قد يبدو منطقيًا لأن الأشياء تحدث كثيرًا بدون سبب! وكذلك لأنني ذكر، و هو شائع في الرجال عن النساء! وعرفت أن التعرض للبترين، أو المواد الكيميائية بصفة عامة قد يساعد على هذا! فكرهت السيارة والبترين!

ولكن هل تصدق يا فادي كرهت السيارة والبترين؟!

ولم تكن أمي هنالك يا فادي لتأخذني في حضنها، وتخبرني: لا عليك فحينما تتدهور حالتك أكثر، و تصبح غير قادر على مغادرة الفراش سأدعك تتبول في سريرك، و سأغير أغطية السرير كما أعتدت أن أفعل و أنت صغير دائمًا من دون أن أظهر القرف، و الاشمئزاز، وحينما تموت يا صغيري سيكون عزاءك كبيرًا وسترسل التلغرفات على عنوان مترلنا، و كنيسة

السيدة العذراء بالزمالك..أعدك!ومن وقت لآخر سأذهب لزيارة قبرك لأتاكد أن أحدا لم يؤجره للإقامة فيه،وطهي الطعام في الأوعية المعدنية التي تغلي فوق النار، و أنت ترقد في الأسفل تحت التراب!

لم تكن الحلوة موجودة للذهاب معي لتلقي العلاج الكيميائي الذي من الممكن أن يكون عاملًا مما أدى إلى المرض، و بإمكانه أن يكون الدواء!

استغربت كثيرًا يا فادي من تلك المعلومة!

فادي هل لازلت هناك؟!

هل لا زلت معي؟

هل لازلت متصلًا؟!

فادي؟!

ذهب فادي من دون أن يكتب كلمة عزاء واحدة، و ربما لم يكمل قراءة بقية الحديث! ومع ذلك سأخبرك يا فادي ما الذي حدث بعد ذلك حتى و إن لم تكن هنالك تتابع باهتمام على الجهة الأخرى، لم أصدم يا صديقي حين علمت أنني كنت محظوظًا فلي الحق أن أعيش خمس سنوات أخرى! قررت حينها أنه لم يتبق الكثير من هذا الشيء الملقب بالوقت ليهدر!

من قال أن العمر قصير؟!

بل إنه قزم! بإمكانك أن تحيا سبعين عامًا كاملة دون أن تعيش.وبإمكانك أن تعيش يومًا واحدًا يغنيك عن بقية العمر.. و أنا قررت أن أعيش الوقت الباقي لي أيًّا كان حتى أجد ذلك اليوم عله يكون في تلك السنوات الخمس، ولا شأن لي أن قدر أنه موجود فيما بعد تلك السنوات! فحينها لن أعرف ذلك أبدًا!

قررت أن أتزوج مع استحالة الفكرة كي أحصل أنا على شقة الدقي ففي كل الحالات سيرثها أخي من بعدي.. سيرث كل شيء لكن ليس شهادتي!

وقررت أن لا أضيع الكثير من الوقت في العمل والجامعة والمستشفى.. انقطعت عن العمل فأنا متعب و انقطعت عن الأمل فأنا مذعور!ورأيت الدموع في عيني أبي،وسمعت كلمات العزاء الغير مهتمة من أخي وكان هذا يكفيني كثيرًا من وقت لآخر كنت أذهب إلى الجامعة لأرى أصدقائي و أثبت لهم أنني الضعيف الغير ضعيف، ونظرات الشفقة لم تكن تجعلني أحس بالعجز بل كانت تسعدني.. ونحيب كريستين من أجلي نحيبها، كل يوم ودموعها الغزيرة فوق وجنتاها ذوات البثور القمحيتان اللون! وقررت أن استغني عن الصورة الشهوانية التي سكنت عقلي

عن المرأة البيضاء الممتلئة الشقراء التي ترقص في مطبخ الشقة، و تمضغ العلكة في انتظاري،وتقلب بالمعلقة الخشبية الطعام فوق الموقد!وأن استبدلها بكريستين، قد تتشابه معها في أن كلتاهما بإمكانهما مراقصة مؤخراتهما السمينة،والغناء بصوت بشع، و لكن لون البشرة لن يكون هو الفرق الشاسع بينهما.

لكنهما تختلفان حقًا في كون أحداهما امرأة والأخرى رجل!

وقررت أن ألاطفها أشعر بأنها قليلة القيمة جدًا كي تكون سيدة الشقة.

ولكن لما لا أعرض عليها الزواج بأي حال كي تتراقص الآن أمامي!

-بتعيطي ليه يا كريستين؟!

-عشانك.

-ماتشليش هم .. إيه صعبان عليكي؟!

-هموت عشانك هموت.

-حبقى كويس ماتقلقيش.

-في حاجة تانية كل مافتكرها بعيط!

-إيه؟!

-إننا مش هننفع لبعض.. ماقدرش أتجوز واحد في حالتك!

-نعم يا أختي؟!

-إيه.!

-إنتي تطولي أصلا! يا روح امك!

لم أصدق أن تلك الحمقاء البشعة قد تفكر بأنها من الممكن أن ترفضني، لقد رفضتني حتى من دون أن أعرض عليها الزواج! حينها بدأت أكره مرضي فعلًا.. و أكثر ما كرهته لأنه جعل من كريستين امرأة لها الحق في أن تقبل أو ترفض!

و جدت طفلة صغيرة تقتحم علينا باب الحجرة عينتاها منغوليتا الشكل قليلًا، و بشرتها سمراء تقترب من لون الطين! مع القليل من الصفرة في عينيها تطغي على لون قزحيتها الخضراء! أشعر بأن شكل أنفها تغير قليلًا أو ربما صارت أسنانها الأمامية أكثر بروزا للأمام؟!ولكن ألوان ملابسها لا زالت زاهية! ورد أحمر في البنطال، و صور قبعات ملونة مطبوعة على كنزتها!

يا إلهي !

-هو إنتي يا مروة؟!

-وحشتني!

مروة.. مروة الفتاة الجميلة ذات الملامح الأوروبية و كأنها من أوروبا صارت مجرد فتاة من الصين!

منذ متى لم أرها! ربما منذ عام! لا بل منذ عامين تقريبًا، منذ أن كانت أمي مريضة، و أنا أبقى إلى جوارها طوال النهار.. لم

أتذكر مروة خلال تلك المدة.. ؤ لم أكن أنوي أن أتذكرها.. مروة في النهاية مريضة في المستشفى من الأشخاص الذين تعتاد وجودهم ليل نهار هناك.

لن أتذكرها لأنها ليست ملكة، أو حتى أميرة..

لأنها فقيرة!

والفقراء في الوطن ضائعون..

من الذي اخترع المال؟! لما يحرم من كل شيء من يحصل على القليل منه؟! ويحصل على جزء من الشيء كل شخص بحسب قدر امتلاكه له.

أكره كلمة المال، و أكره ترجمتها في كل اللغات بالرغم من أنها الكلمة الوحيدة التي أحفظ ترجمتها في اثنا عشر لغة!

هل تذكر(حمام)يا فادي؟!(حمام)زميلنا طالب الطب الوسيم للغاية صاحب العينان العسليتان والابتسامة الجميلة..

الشعر الناعم الأسود الداكن،والجسد الرشيق، والملابس العادية ولكن الحذاء كان رديئاً،وتأملته عدة مرات لفترات طويلة لأتأكد من هذا! وكان يبدو من الواضح من لهجته وأصدقاءه أنه من الأقاليم، و ليس من سكان القاهرة! ولا أنسى دهشتي الكُبرى يوم علمت أن اسمه.. اسمه الحقيقي، وليس اللقب هو حمام جمع حمامة!

وحينما كنت أعاني لتحريك جسدي الضخم و أنا مارًا عن طريق الصدفة البحتة في دهاليز الكلية رأيت عدة ورقات بيضاء معلقة على جدار مترو لا يقترب منها أحد ولكني اقتربت! فأنا لست كأي أحد هناك.

كنت دومًا، ودائمًا مختلف!

أسماء الطلبة الذين لهم الحق في الحصول على مساعدات من الصندوق الاجتماعي:

أدوات دراسية.. أدواتنا الدراسية هي السماعة الطبية، والمعطف الأبيض، مطرقة فحص الجهاز العصبي، ومتر القياس، والشوكة الرنانة.. ولاشيء من هذا باهظ الثمن!

مصاريف الكلية...

مصاريف المدينة الجامعية...

و رأيت هذا الاسم لامعًا بشكل غريب و كأنه لؤلؤة حية

تتألق بين أصداف لآلئ متحللة.

(حمام إبراهيم المصيلحي)

إنه حمام، فهو حمام الوحيد في دفعتنا، ولا حمام غيره حتى في كل الدفعات سوى الحمام المحلق في السماء!

صرخت صرخة ملكومة مكتومة في داخلي.. وتحجرت الدموع في مقلتي عيني.

وحين عدت إلى المترل و أنا مثقل بالأحاسيس المتنوعة من كل الجنسيات بالذنب بسبب قدر الرفاهية الضخم لذي أعيشة أنا الطالب السمين القبيح العادي جدًا.

وجدت السيدة الرائعة أمي واقفة في المطبخ تجهز الطعام الساخن من أجلي كالعادة.. القيت بجسدي الضخم على أرضية المطبخ و جلست عليها بالرغم من أنها كانت مبتلة، ثم أجهشت في البكاء.. البكاء العميق!

ماذا عن طالب ثانوية عامة يبكي بعد خروجه من الامتحان في مترله في فترة الظهيرة؟! يبكي لأن الامتحان كان صعبًا ومازال المستقبل أصعب، ولا تمتلك أمه الفقيرة سوى أن تشغل له المروحة الكهربائية لا التكييف في نهار صيفي حار وتغطيه بالملاءة، و تدعي على من ظلمه، و وضع الامتحان، ولا تستطيع أن تعده بإدخاله إلى جامعة خاصة! أو بأي شيء، أو حتى وجبة العشاء في المساء!

..

AM ١١:٣٥

شريف عبد الله...

لا لم أعد أقدر.. إنني أختنق.

أريد أن أخرج من هنا بالرغم من أن هذه العربة مكيفة.. لم ألاحظ من قبل أن المترو مكيف! ولماذا التكييف ونحن في فصل الشتاء؟!

دكتور عزيز هل لاحظت أن المترو به تكييف من قبل؟!

-نعم هذا لأنه القطار الجديد.. إنه ينتمي إلى المرحلة الثالثة من مشروع إنشاء مترو الأنفاق حيث هنالك خطان يتجه الخط الثالث إلى شارع شهاب بالمهندسين! يا الهي المهندسين! لقد نسيت! أنا ذاهب إلى الدقي لقد ركبت العربة الخطأ! ولكن كيف.. كيف من الممكن أن أُخطئ لا أُصدق أنني سهوت! لقد بدأت أفقد ذاكرتي.

-أنا آسف يا سيدي! بإمكانك أن تستقل تاكسي من هناك إلى الدقي.

-نعم أعرف.. لا عليك أسهو كثيرًا،وبدأت أفقد ذاكرتي.. ولكن هنالك بعض الأحداث، و الأشخاص في حياتي لا يمكن أن تنسى!

-حسنًا! (ما الداعي لأن يخبرني هذا الكلام)!

-بالرغم من هذا أنا سعيد أن الحظ حالفني اليوم لرؤيتك يا شريف أنت أفضل حالًا بكثير.

-شكرًا.

-إذن هل تروق لك عربات المترو الجديدة؟!

-نعم.. لطيفة!

-عليك أن تشكر اليابان إذن!.. إليها يرجع الفضل كله في كونك تستمتع الآن بالتكييف هنا!

-لا أستمتع به! من قال أنني أستمتع؟!.. الجو خانق بالرغم من وجوده.. وبدأت أشعر بالبرد، نحن في الشتاء، ولا حاجة له!

-سروالك قصير يداعب الهواء رجليك فتشعر بالبرد!

-ألا تشعر به أنت؟! بإمكاني أن أرى شعر صدرك يقف من البرودة!

-إذن ماذا تريد أن تفعل ممن سوف تطلب إغلاق التكييف؟!.. إذا صرخت هنا لن يسمعك أحد.

-أهذا سجن لِمَ لْ نصل؟! استغرق وقت أطول من المعتاد!

أستاذ عادل: هنالك أمر غير طبيعي، بدأت أقلق، عله خير!

دكتور عزيز: لا تقلق مادام المترو لا يزال يتحرك.. إذن فنحن بخير.. هل تظن أن هنالك عطل ما؟!

أستاذ عادل: ربما.

دكتور عزيز: لا تقلق فنحن في حماية اليابان، هذا المترو مساعدة من شركة يابانية لنا!

أستاذ عادل: كنت أظنها فرنسية.

د.عزيز: لا، هذا الخط تولته اليابان!

أستاذ عادل: رائع.. سأنحني احترامًا لليابان.

أنا: يجب أن أنحني إذن كلما صادفنا سائحًا يابانيًا.. هؤلاء الأشخاص قصار القامة، ذو العيون الضيقة، والشعر الأملس الأسود! لم أصدق يوما أن لهم قيمة!

د.عزيز: لا تكن أحمق يا شريف، إنهم رائعون نشيطون، ومقاس أحذيتهم صغيرة،والملابس تصبح مبهرة على أجسادهم الرشيقة،و كذلك الصينيون إنهم رائعون سوف ترى هذا العام الكم الرهيب من الميداليات الذهبية التي سيحصدونها في الاوليمبياد هذا العام في لندن سترى بنفسك!

أستاذ عادل:آمل هذا، عله خير!

أنا: لا يهم.

(ما هذا الحديث الممل! أي جحيم هذا! لِمَ لا يتوقف هذا الشخص المسن عن التدخل في أحاديثنا..أهنته، و لم يغضب، ولازال يتكلم ولا يحاول أن يهينني!ألا يحب أن ينتقم لنفسه؟!)

أستاذ عادل: ابني هل أجد معك منديلًا ورقيًا؟!

أنا: لا.. آسف.

د.عزيز: تفضل يا سيدي.

أستاذ عادل: شكرًا أيها الطبيب ألست طبيبًا؟!

د.عزيز:بلى.

أستاذ عادل: أهلًا، وسهلًا.. أعذرني فأنا مصاب بالزكام، وحساسية الصدر غالبًا في هذا الفصل.

أنا: سمعتنا ونحن نتحدث ليس بإمكاننا إغلاق التكييف!

أستاذ عادل: و أنا لم اطلب ذلك!

أدير وجهي للجهة الأُخرى لأُعلن عن رغبتي في عدم استكمال الحديث الممل،وهو يرى كيف أنني أتخذ موقفًا متحفزًا منه كلمة أُخرى كان سينطقها كانت النار سوف تضرم في تلك العربة!

أنا: د.عزيز لم تخبرني كيف خسرت وزنك بهذا الشكل الرائع؟!

د.عزيز: ليس رائعا.. إنها قصة طويلة يا شريف.

أنا: أتمانع إن اسمعها فلا زال لدينا الوقت بما إنه يبدو وكأننا لن نصل!

د.عزيز: شريف أنا مصاب بسرطان الدم يا عزيزي، لقد عانيت كثيرًا وصحتي متدهورة!

أنا: يا إلهي...! أتمنى أن تصبح أفضل.. أنا مصاب بالتهاب الكبد الوبائي كما أخبروني، أنت تعرف هذا أليس كذلك، كنت أنت تقريبًا من أخبرني؟!

د.عزيز:حقًا...!يا إلهي!ولكن حسنًا لا تقلق يا شريف ليس أمرًا خطيرًا !

أستاذ عادل: بلى إنه خطير.. وخطير جدًا، لا تكذب عليه صديقي مات بسببه مؤخرًا،وكما وصفت لي زوجته تبدأ في مراحله الأخيرة تتقيأ دمًا، و يفشل الكبد عن القيام بوظائفه، وترى الاستسقاء في بطنك.

د.عزيز:أتتحدث كطبيب يا سيد؟!ماذا تعرف أنت!لا تقلق يا شريف لن يحدث لك هذا، و هنالك احتمال كبير أن تكون حاملًا للفيروس فقط لا مصاب به!

أنا: لست قلقًا!

(هاهو قد انتقم مني ذلك المسن.. لقد كنت انتظر هذ ..)

-سيدي ما اسمك؟

أستاذ عادل: عادل رضا.

أنا: لقد كسبت الجولة يا حاج عادل! أهنئك.

أستاذ عادل: أيّة جولة؟!

أنا: لا يهم.. ماسم ابنتك على أية حال؟!

أستاذ عادل: لا حاجة لك لمعرفة اسمها، و لكن لا بأس اسمها خديجة!

أنا: هل تعرف بأنك كنت على وشك أن تزوج خديجة المسكينة من شخص قد ينقل لها الفيروس عندما أضاجعها؟ (ابتسم)

أستاذ عادل: أيها الـــ...

د.عزيز : اهدأ يا سيدي.. أرجو أن تجلس،شريف أنت أصبحت لا تطاق بصدق!

أخاطب نفسي: ألن يتوقف د.عزيز عن القيام بدور المصلح الاجتماعي! بإمكانه أن يفرض سلطته في مكان آخر في المستشفى القذر هناك حيث تقبع أسوء الذكريات، ذكريات أكثر بشاعة من ذكرياتي مع عبد الله أبي.. الحمامات القذرة.. الليالي الباردة في الشتاء، و بطاطين المستشفى الخفيفة الرديئة

المصرية الصنع الغير معقمة! الجوع الشديد، و رفضي الأشد لتناول أطعمة المستشفى الملوثة حينما تغيب أمي عني لفترة.. المرضى بكل علل ومصائب الدنيا يقدم لهم هناك بطاطس مطبوخة بالصلصة الحمراء! أي غباء هذا؟! المرضى تتخطف الأطعمة بنهم.. وقد تتغير الوجبة في اليوم التالي فيقدم لهم الأرز الأبيض مع البيض! وسلطة خضراء شكلها مقزز! الرائحة المميزة البشعة التي تنتشر في كل مكان في مستشفى الدمرداش في كل الأقسام.. أضع كمامة على أنفي إذا ما أجبرتني الظروف على العبور في ردهات المستشفى الكبيرة المهملة !

لا أنسى الرجل المسن المسكين الذي كان يتناول شطيرة بيض مسلوق وهو جالس على أحد أرصفة المستشفى، وحينما سقط القليل من صفار البيض على أرضية المستشفى القذرة التي تحمل جميع الأمراض مد يده وتناول قطعة الصفار مرة أخرى و أعادها للساندويتش!

والطفل الصغير الذي لم يتجاوز عمره السادسة و وجدت وجهه محروق بشكل مرعب.. وتفاديت النظر إليه بينما حدق هو إليّ ببراءة و كأنه معتاد على تحديق البالغين مثلي به..! ولأول مرة منذ سنين شعرت أن خدي بللته بعض الدموع!

مرة كنت مارًا في قسم أمراض الصدر، والقلب،والكمامة على أنفي كالعادة.. كنت أنا دائمًا أفضل و أرقى شخص

هناك مظهرًا و شخصية، و الأقوى بدنيا! حين نادي عليّ أحد المرضى من داخل حجرة في القسم رجل في الخمسينيات من العمر راقد على سريرة.

-لو سمحت يا ابني ممكن تناولني الدوا اللي هناك دة؟

و أشار إلى شريط الحبوب الخاص بدوائه على طاولة تبعد عن سريره مسافة أقل من المتر الواحد.

أبديت امتعاضًا.. ألا يستطيع أن يتحرك ويجلبه لنفسه؟! هل هو كسول لهذا الحد؟!ولكني رأيت كمية من المياه مسكوبة على الأرض، وتحيط سريره فظننت أنه من الممكن أنه يخشى الانزلاق إذا تحرك أو أن يبتل جلبابه المتسخ من الأسفل في البرد!

-معلش يا بني أصلي لسه عامل عملية،ومغير الصمام الأورطي في القلب، و مش قادر أتحرك أعذرني يا ابني.

-لا.. لا.. ولا يهمك يا حاج.. أتفضل!

حينما اقتربت من سريره لأناوله الدواء ارتجف قلبي حينما رأيت كيسًا به سائل لونه أصفر يتدلى منه، ويرقد على طرف السرير ثم عرفت أن في تلك الحافظة بوله نتيجة للأسترة فهو لا يستطيع أن يتبول إراديًا، و لديه احتباس في البول، و تعجبت كثيرًا، و شعرت بالقرف ألا يخجل من نفسه؟! من المفترض أن

تثبت تلك الحافظة البلاستيكية للبول في رجليه ويخفيهم تحت الجلباب ! ليس من المفترض أن يصيبني بالغثيان إذا اقتربت منه بغرض المساعدة!

-ربنا يخليك يا بني ويصلح حالك وبالك و...

أصممت أذناي عمدًا للمرة الألف في حياتي عن تلك الدعوات الغير صادقة، و التي دومًا لا تستجاب، و خصوصًا إذا كانت من شخص بإمكاني أن أرى لون بوله!

حين هممت بالانصراف وجدتني قد دست بقدمي في تلك المياه و ابتل سروالي من الأسفل الذي لم يكن قصيرًا بعد.

ثم صرخت صرخة عالية صدح صوتها في كل أقسام المستشفى وخارجها، صرخة طغت على أصوات زغاريد النساء في مستشفى النساء والولادة عند وصول المواليد الذكور من بطون أمهاتهم.. صرخة طغت على أصوات صراخ السيدات و أصوات لطمهن على وجوههن، وعويلهن المصري المميز عندما يتوفى أحد ذويهن في المستشفى، صرخت صرخة رهيبة بكل أحبالي الصوتية، و بكل قدرتي الرجولية حين اكتشفت أن تلك المياه لم تكن سوى بولًا أصفر تسرب من ثقب في حافظة بول الرجل!

..

AM ١١:٤٣

أستاذ عادل رضا...

الحقير ابن العاهرة.. كيف يجرؤ، و يقول هذا عن خديجة؟! لولا تدخل هذا الطبيب أقسم بأني كنت سآخذ رأسه و أرطمه بنافذة المترو عدة مرات حتى يشج أمامي عدة مرات!

لتكن صادقًا مع نفسك يا عادل هل هذا الطبيب هو السبب فعلًا هو من منعك من أن تمسك ذاك الشاب من لحيته؟! هل هو السبب يا عادل؟! أم إنه الخوف، و الجبن اللذان ترعرعا في قلبك، و عقلك على مدى الخمسة عقود التي عشتها من حياتك؟! الخوف على أولادك قبل نفسك،الخوف عليهم واحدًا واحد، الخوف على لقمة عيش خديجة..والخوف على حذاء كريم.. الخوف من الفقر وعدم القدرة على شراء ما تطلبه مني أم العيال، و الخوف من عدم حصولي على ابتسامتها التي تظهر نابها الأمامي المخلوع و الفراغ الأسود مكانه عند عودتي من السفر بيدين فارغتين!

كنت تتمنى يا عادل لو إنك أمسكت لحيته ثم بصقت فوقها..فتلك ليست أخلاق الشاب الملتحي!أهذا الشاب الصالح الملتحي الذي تمنيت أن يكون ولدًا لي، نتوضأ معًا،ونُصلي معًا،ونخرج من المسجد يدي فوق كتفه بفخر! يا للشاب

الزائف!.. أريدك يا كريم أن تُصبح أفضل منه، أريدك يا كريم أن تصبح رجلًا يحترم الأكبر منه، و يحترم الأصغر، يحترم الأنثى، والذكر، يحترم الطفل، و الطفلة، يحترم سجادة المسجد، وحتى النملة! أريد أن أربيك يا كريم! و لكن أين أنا، و أين أنت؟! لا يمكن أن أربيك خلال الأسبوعين فقط اللذان أقضيهما في مصر معكم.. هل تذكر يا كريم حينما كانت أمك تُريد العودة بكم إلى مصر حين وصولك للشهادة الابتدائية و أرادت أمك أن تتعلم تعليمًا مصريًّا ؟!هل تذكر حينها أنني اقترحت أن تدرس في البيت ثم تسافر مصر آخر العام لتأدية الامتحانات؟! كل هذا أملًا أن تقيموا معي مدة أطول، و بالرغم من اعتراضات أمك تحديت نفسي ونفسك.. هل تذكر أول مرة شرحت لك درسًا في اللغة العربية في أول درس تتلقاه و أنت جليس البيت؟! هل تذكر القبلة القوية العالية الصوت التي تلقيتها على وجهك مني حينما رأيت منك بوادر استجابة وفهم للدرس؟! هل تذكر الفرحة التي كانت تتلألأ في عيني وقتها؟! هل لازلت تذكر شكل عيني أبوك يا كريم؟

ولكن الفرحة لم تدم يا كريم، و سرعان ما هددنا كابوس دخول خديجة أختك الكبيرة إلى الجامعة بعد حصولها على الشهادة الثانوية من هناك بمجموع متواضع.. وحينها لم أستطع

الاعتراض و رحلتم يا كريم، و ودعتكم، و صعدتم إلى الطائرة، و عدت أنا وحيدًا يا ولدي إلى البيت، و لم تترك لي أي ذكرى منك يا كريم سوى بعض من أظافرك المقصوصة في محفظتي من ثم أخذت دميتك في حضني.. أدفأتها فيه بدلًا منك، ونمت نومًا كئيبًا يا كريم، و فوق سريرك!

..

AM ١١:٤٣

د.عزيز كامل محب...

من منهما المُخطئ في حق الآخر هذا السيد أم شريف؟!

يا لهذا الحظ اللعين! حتى أنني أخذت المترو الخطأ عوضًا على أبي مريض، و مرهق.. لست بخير على الإطلاق حتى أقفز من سيارة أجرة إلى سيارة أُخرى.

لعنة الله على مرضي، و لعنته على شقة الدقي!

لا تقلق يا شريف من مرضك.. يا عزيزي فهنالك من كان أقل حظًا منك، و مرضه أسوء.

-أخبرتك يا سيدي لست قلقًا!

-شريف هل تعرف بأن ما تبقى لي في الحياة هي أيام قليلة؟ و أريد الاستمتاع بها.

-و كيف ستستمتع؟!

-لقد كنت محظوظًا يا شريف لأنه منذ صغري أدركت قيمة الوقت، و قيمة النصف ساعة.. وذلك لأنها كانت تفرق كثيرًا في معدل تحصيلي في دراستي الصعبة.. لقد كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لأُدرك قيمة الوقت لأعي الدرس جيدًا، إن الحياة قصيرة.. قصيرة جدًا و إن فترة الشباب هي أفضل مراحل عمرك حتى إن المطربات الكبار حينما يشخن يفقدن القدرة

على الغناء.. لقد استوعبت الدرس جيدًا مما جعلني استمتع بكل دقيقة في حياتي منذ أن استوعبته في الطفولة.. لم أترك حياتي تتوقف حتى من بعد وفاة أمي.

-هذا رائع أهنالك خطأ تندم عليه في حياتك.. أنت لم تتزوج صحيح؟! ألا تندم على عدم الزواج،وإنجاب الكثير من الأطفال؟!

-لست نادمًا على عدم الإنجاب وهذا ليس لكوني مريضا سأموت و أتركهم يتامى، والحقد يملأ عينيهم على زملائهم في الروضة الذين يأتي آبائهم لاصطحابهم في سياراتهم الخاصة، ولكن لأنني دومًا ما كنت أستغرب من الأشخاص الذين يلقبون أنفسهم بالمحظوظين إذا اكتشفوا أن زوجاتهم حوامل، وأنهم سوف يصبحون آباء!

-أليسوا محظوظين بالفعل؟

-أنت لست محظوظًا، ولا ناجحًا كونك ستصبح أب فأي شخص قادر على الإنجاب، ولكنك فعلًا غير محظوظ كونك ستصبح لديك أطفال أنت مسئول عنهم، سيعيقون مسيرة نجاحك في الحياة!

-هذا صحيح.. لم أفكر هكذا من قبل، ولكني من قبل لم أكن أفكر!

-و أنت لِمَ لْم تتزوج؟!

- لم أحب أي امرأة بعد!

-كيف هذا؟!

-ولكني كرهت أي امرأة تعاملت معها في حياتي.. كرهت وفاء أمي وكرهت جدتي.. وكرهت ميس نجلاء معلمة اللغة العربية حتى إني كرهت المرأة العاهرة المجنونة في الشارع المجاور!

-شريف! لم تتحدث بصوت خفيض يا عزيزي؟!

-كي لا يستمع إلينا هذا الشخص الثالث، و يتدخل في الحديث كالعادة!

-ههههههه.. بالله عليك! أتكره النساء ؟! أخبرني إذن ماذا عنك؟ ما هي أكبر أخطائك في الحياة؟!

-أنني لا اكذب!

-إذن اكذب علي الآن.

-أكرهك.

-أتحبني؟!

-بالطبع.. لقد كنت أحن علي حتى من عبد الله.

-من؟!

-عبد الله أبي.

ابتسم.. شريف شاب خفيف الظل جدًا لقد كنت أعرف هذا، ولكنني نسيت، وذلك لأني نسيت أن هنالك شخص في الحياة تعاملت معه ذات يوم اسمه شريف! وعندما قابلته اليوم تذكرت هذا!

اعتاد شريف حينما كان مريضًا لدينا في المستشفى أن يلقى على مسامعي النكات، و أن يمازحني كلما تقابلنا في رواق المستشفى

نفس الرواق الذي رأيت فيه مروة مرة أخرى من أسبوع، و صار وجه المنغوليا أكثر وبطنها متضخم بشكل مزعج أو ربما تهيأت أني لمحتها، هل كانت مروة أم لا! فكل أطفال الثلاسيميا في المستشفى متشابهين تتشابه ملامحهم إلى حد كبير لا يميزهم سوى كون هذه فتاة تلبس حجاب وكون هذا شاب يرتدي بنطالًا وشعره قصير! هذا قزم وهذا طويل!

لأنها حين رأتني ركضت واختفت عن أنظاري!

بالأمس حينما كنت في زيارة للمستشفى رأيت امها ذات الملابس الزاهية الألوان.. وتذكرت شكوى مروة لي عن عم حسين الذي يتحرش بها.

مر الكثير من الوقت منذ أن اشتكت لي مروة في عام ٢٠١٠، و لكن الفرصة لم تتح لي سوى أن اقابل أمها إلا في

عام ٢٠١٢ أي بعد مرور عامين كاملين! كم أنا أحمق، مستهتر،وتافه بل مجرم!كيف نسيتك يا مروة،ونسيت شكواك! أنا سيء يا مروة أنا سيء..أنا أسوء من كل من آذوكِ يا صغيرتي.

اقتربت من أمها التي ولأول مرة أراها ترتدي عباءة قاتمة اللون عباءة سوداء!

-إزيك يا أم مروة؟

-أنا أم حسين (تضحك)

-حسين مين؟

-الواد ده..!

و تُشير إلى الرضيع الذي تحمله بين يديها.

-إيه ده إنتي خلفتي!

-أيوة عنده عشرين يوم.

-مبروك!..إيه دة استنى..مش أنتي كنتي أرملة!هوا أنتي اتجوزتي يا ست؟!

تظهر ملامح الضيق على وجهها، و يتغير تعبيره.

-أيوة.. أتجوزت من سنة ونص.

-أتجوزتي مين؟

-واحد جارنا.

أصيح بها كالمجنون: أتجوزتي مين؟

-واحد كدة أنت ماتعرفوش.

-اسمه إيه؟ (أسالها بلهفة)

-حسين.

-حسين! حرام عليكي يا مفترية أتجوزتيه، و دخلتيه بيتكو على عيالك ومخلفة منو كمان! إنتي عارفة دة بيعمل إيه في مروة!

تنظر إليّ ببلاهة، ولا ترد، أصيح بها مرة أُخرى.

-أنتي عارفة دة بيعمل إيه في مروة! يا مجنونة؟! وعشان كده مسمية ابنك حسين على اسمه! دة أنتي أم لخمس عيال أنتي ناقصة عيال!

-أربعة بس، ودة الخامس.

-أربعة! يمكن..! أنا مش فاكر.. بس مش لاقية إلا حسين، دة اللي تتجوزيه.. حسين! و بقالكو سنة ونص كمان!

-مروة ماتت..

-أفندم؟!

-مروة ماتت من تلات شهور.

-إزاي.. إزاي.. إزاي.. أنا لسه شايفها!

-ماتت والمصحف.

-ماتت إزاي؟! إزاي مروة تموت!

-كانت بتتخانق مع إخواهّا وخبطوها في الحيطة،و الدكتور قال أن حصلها نزيف داخلي في الطحال.

فكرت: أعرف عن تضخم الطحال في مرضى الثلاثيميا، وغالبًا يستأصل بعد سن الخامسة لأنه يكون معرض للصدمات، و القطع، و التريف الداخلي، لم أتوقع أن مروة حتى الآن لم يستأصل لها، ولكن كيف ومن دفعها للجدار؟

-إخواهّا اللي كانوا بيتخانقوا معاها.. إخواهّا ولا حد تاني يا ست؟!

-أيوة اخواهّا.

-أخواهّا ولا المجرم اللي أنتي متجوزاه؟!

-حرام عليك!

-أنتي اللي حرام عليكي أنتي ما بتعيطيش على بنتك؟!

-عيطت!

-وبعدين إيه اللي حصل بعد ما وديتوها المستشفى مخبوطة؟!

-ماتت!

-إزاي؟!

-عمرها كده

-فين حسين ده فين حسين أكيد هوا اللي خبطها ردي هوا مش كدة؟! هوا.. أنا عارف أنه هوا.. ماساهاش إلا لما قتلها!

مضيت أركض بين أزقة المستشفى، والكلية أصرخ كالمجنون مروة.. مروة.. أتمنى لو قابلت حسين هذا لأني هذه المرة واثق تمام الثقة من أني سوف أقتله، أركض تحت أشعة الشمس حتى أن نصف الشيكولاتة التي أكلت نصفها وتركت النصف الآخر من أجل مروة قد ذاب في الشمس، وصارت لدي بقعة بنية في جيب المعطف الأبيض.

أركض هنا، وهناك لا أنطق سوى باسم واحد،وأقسم أنه لن يجيبني إلى الأبد...

مروة..

مروة...

..

AM ١١:٤٨

شريف عبد الله...

كيف يسألني عن عبد الله؟ ألا يعرف من هو؟! آه صحيح فعبد الله أبي.. أبي أن يكون هناك حينما طلب الدكتور رؤيته لمناقشته هو و الأسرة في حالتي، و لمساعدتنا على تخطي الأزمة!

على كلٍ...

سأختنق.. لم أعد أقدر،سأختنق،هذا الرجل المسن قد سحب آخر كمية أكسجين لحسابه الخاص في فتحتي أنفه الواسعتين جدًا!

أخرجوني من هنا!

فعلًا أريد أن اخرج، يبدو بأننا لن نصل!

بدأت أخاف.. إني أحتضر.

د.عزيز: اهدأ يا شريف، لا داعي للخوف سنصل شارفنا على الوصول!

أنا: دكتور.. هل تبكي؟!

د.عزيز: لما تقول هذا؟!

أنا : أرى أن انفك محمر!

د.عزيز: فقط تذكرت ذكرى سيئة.. و اسم لا أريد تذكره طوال عمري لأني سأنتحب في كل مرة.

أنا: حسنًا لا داعي لأن تتذكره مرة أُخرى إذن، أنا آسف، ألا تلاحظان أن المترو لا يتوقف في أي محطة؟!

(أسالهما بصيغة المثنى، ومع ذلك أتحاشى النظر إلى وجه الرجل الآخر)

أستاذ عادل: هذا صحيح استغربت الأمر!

(ومع ذلك يرد على سؤالي! حان الوقت لنبذ الخلافات إذن)!

أنا: أنا لا استغربه إنني مرعوب!

د.عزيز: اهدءوا يا جماعة، لم نكمل حتى ساعة من الزمن هنا أنا لا ألوم أحد على هذا التأخير، و لا حتى سائق المترو، أنا لا ألوم سوى نفسي كيف أعود إلى المترل في تمام الثانية عشر صباحًا و أنام عن صلاة الفجر؟!

سامحكم الله يا صديقاي، كنا نحتفل بنجاحنا في امتحان الفصل الدراسي الثاني، و سهرنا في إحدى المقاهي البعيدة في مدينة السادس من أكتوبر، وعدنا إلى المترل متأخرين،وكنت أنا من أقود.. لا أذكر ما حدث تقريبًا بعدها، لكن يبدو بأنني كنت مرهقًا لدرجة أني رحت في سبات عميق، ولم أشعر بنفسي سوى و أمي توقظني من أجل الصلاة.

أمي التي عادت من الكويت هي وشقيقاي فجأة..ربما وصلوا البيت في الصباح الباكر أنا لا أعرف..أنا لا أذكر...

AM ١١:٥٢

أستاذ عادل رضا...

أنا: توجد رائحة رائعة هنا يا إخوة.. أهذا صحيح؟!

شريف: رائحة عطري أنا! إنه غالٍ ومميز!

أحدث نفسي يا ليتني ما نطقت بحرف! يشعر هذا التافه الصغير إنه يتفوق علي حتى لو بالعطر!

ولكن ما نوع العطر؟! ربما أحضره هدية كريم في عيد ميلاده هذا العام!

عيد ميلاده يوافق هذا اليوم حقيقة إن الولد ولد في الرابع عشر من فبراير ولكن أمه أصرت بأن لا نسجل تاريخ ميلاده في يوم عيد الحب حتى لا يستخف به زملائه في المدرسة وزوجته في المستقبل.. لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة أن أم العيال وهي تلك الشابة النحيفة متوسطة الجمال الموظفة الحكومية التي تزوجتها عام ١٩٨٧ تدرك تاريخ عيد الحب!

اتصلت به العام الماضي في تمام الحادية عشر مساءً هاتفته من الرياض حيث أقيم في شقتي المليئة بالصراصير التي لا أمل من الخلاص منها حيث قرأت أن الصرصور إذا قطعت رأسه بإمكانه أن يعيش لعدة أسابيع بعدها!

الليلة هي عيد ميلاده ويقيمون له حفلة هناك، وخديجة أغلقت على نفسها باب غرفتها فهي ترى أن أعياد الميلاد بدعة! و أنا استمع إلى(سورة الأنعام)على شريط الكاسيت بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، و أطلب الكود الهاتفي لمصر الحبيبة التي أنجبت هذا الشيخ، ثم اطلب أرقام هاتف مترلنا بل مترلهم! من ثم يجيبني صوت كريم الذكوري الخشن من قبل أن تواتيني الفرصة كي أخفض صوت جهاز التسجيل قليلًا كي أتمكن من سماعهم على الهاتف.

كريم:آلو.. بابا إزيك؟

(وَهَـــذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

– تلقفت أم العيال سماعة الهاتف من كريم بعنف.

زوجتي: أيوة، أنت مش فاكر تتصل تكلم الولد في عيد ميلاده إلا الساعة عشرة بالليل؟!

أنا: أنا أسف يا كريم.

زوجتي: كلمني أنا.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ)

أنا: يا ستي إنتي ماتعرفيش إيه اللي جرالي النهاردة في الشغل إتخانقت جامد النهاردة وواحد أد خديجة بنتك هزأني وشتمني.

زوجتي: الواد كان مكتئب طول اليوم إنك ماتصلتش بيه.

أنا: وبعدين الضغط على عليا، روحت خدت حبوب منع الضغط ونمت في السرير بين الحياة والموت!

زوجتي:وأصحابه في المدرسة قعدوا يقولوله أبوك ما سألش فيك.. أبوك ما سألش فيك!

(وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

أنا: انتي سامعة أنا بقولك إيه؟!

زوجتي: كلمنا بعد ساعة كدة، عشان هنطفي الشمع دلوقتي!

أنا: آلو.. آلو..!

اعتدلت في مكاني في السرير، و ظللت أحدق إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامي، أحسب الدقيقة بالدقيقة بفارغ الصبر، يخفق قلبي حينما يزور عقرب الدقائق أرقام الساعة ليلقي التحية عليها ببطء شديد.. و أنا أقف كالمتفرج، مشلول الحراك ليس بإمكاني حتى أن أنهض من مكاني، وأحرك العقرب

يدويا، و أطرق بيدي المنهكة أبواب أرقام الساعة كي تمر ساعة من الزمن بسرعة، و أتصل مرة أخرى لأسمع صوت فلذة كبدي، وهو يحتفل بعيد ميلاده، و الصورة أمامي تظهر مهتزة، و مشوشة، أشعر بصداع كبير، و زغللة في عيني ومازلت.

استمع إلى شريط القرآن الكريم بصوت الشيخ (عبد الباسط عبد الصمد).. أغمض عيني، و أتوقف عن متابعة حركة عقرب الساعة التي أرهقتهما أكثر، و أكثر.

رأيت خديجة ابنتي تجري حافية، و ترتدي بيجامتها الزهرية الملتصقة بجسدها الممتلئ، و رأسها مغطى بخمار أسود حجب حتى عينيها، رأيتها تركض مهرولة، وخلفها يركض أولاد خالتيها الاثنتين ويضحكون، و هي تصرخ في ألم بدون حذاء، تقبل قدميها الطين المبلل في الغيط، ثم رأيت فتاة صغيرة مبللة تمامًا تلعب بالمياه القذرة في القناة الضيقة، و شعرها غير ممشط، و حين اقتربت منها اكتشفت أنها خديجة أختي! وفي منتصف الأرض الزراعية رأيت محمود يجلس القرفصاء، يحمل معاذ الطفل الرضيع بين يديه، و محاط ببناته الخمس! من خلفهما النخيل يطلع علينا منه رجل مسن و امرأة استطعت أن أميز رائحة مسحوق الغسيل تفوح من ملابسها، و معهم شخص ثالث.. أهذه أمي؟! أهذا أبي! أفذلك كامل؟

عله خير!

عقرب الدقائق شارف على زيارة الرقم الثاني عشر، ولا تفصله عن بيته سوى بضع ثوانٍ.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

..

AM ١١:٥٢

د.عزيز كامل محب...

حينما كنت أرقد في المستشفى، يناوب على زيارتي أصدقائي كلهم أصدقاء الروضة، أصدقاء المدرسة الابتدائية، والثانوية،وزملائي في الجامعة.

كلهم دخلوا حيث يرقد "كرنبة" في المستشفى الفخم، ومحاط بأكاليل الزهور المختلفة من شتى الأنواع، و الألوان.

و لكن باقة الزهور تلك كانت مميزة حيث قرأت على البطاقة المرفقة معها: أتمنى لك الشفاء العاجل، و داوم الصحة والعافية.

من: د.كريستين حرم الباشمهندس جورج!

ألقيت البطاقة بقرف في سلة المهملات الموجودة إلى جانب السرير، و من ثم التقت هاتفي المحمول، و ليس لأحادثها أو أبارك لها على الزواج، فهي لا تعنيني في شيء حتى إن خبر زواجها لم يثر في داخلي أيّة مشاعر من الفرح، أو الحقد، أو الكراهية، أو الغضب لها، لا أتذكر حتى أني قرأت البطاقة بالفعل!

ولكني التقت سماعة الهاتف كي أحدث د.كامل محب - أبي- فأنا هنا جائع، و انتصف الليلة، و انتهي موعد الزيارة، ورحل الجميع عن الغرفة.

العم، و ابنه، الخالة، زوجها، د.محمود، د.عمرو، د.أمير، و القائمة طويلة.. و روائح العطور العالقة في الغرفة مختلفة.

كنت أريد من أبي أن يزورني في تلك الليلة كي يجلس إلى جوار السرير، و أراقبه، و هو يلعب بشاربه الكثيف الأبيض ثم أغط في نوم عميق.

وحين طلبت رقمه في المرة الأولى لم يرد،الثانية.. الثالثة...

ثم أجاب بعد الاتصال الخامس...

أعلم أنه مشغول حتى إنه يعمل حتى منتصف الليل في عيادته، ومستشفاه الخاص.

و لكنه سوف يرد في النهاية فأنا عزيزه الذي ورث مهنته ومريض أيضا! مريض بشدة!

-كيف حالك الآن يا عزيز؟

-أبي أريد أن أراك الليلة، و احضر معك طعامًا لي.

-الليلة؟!

-لا تعترض!

-سأحاول.

-يجب أن تأتي.

-سأفعل.. نم الآن يا عزيز.. تصبح على خير.

-...

-عزيز؟

أغلقت الهاتف من دون أن أودعه، فهو سيأتي على أيّة حال إلى هنا، و أنا اعرف هذا.

أغمضت عيني في السرير

و كنت جائعًا للغاية، ولا أحب طعام المستشفى، صحيح أنه ليس بقذارة الطعام الذي يقدم للمرضى المساكين قليلي الحيلة في الدمرداش نفس الطعام الذي يقدم للطفل الذي غير صمام الأورطى و الميترالي في قلبه لضيقهما، و ارتجاع الدم فيهما، و تورم قدماه بشكل مؤسف، ولكنني فقط كل ما في الأمر لا أحب هذا الطعام!

تمددت في السرير تحت غطاء المستشفى الثقيل، و لم أشعر بنفس النشوة التي أشعر بها في سريري في بيتنا.. لم أدرك إذا كنت قد غفوت أم لا.. ولكني رأيت أمي قادمة نحوي تقدم لي ساندويتش الجبن المحفوظ، و الحليب كامل الدسم.. و رأيتها تضحك نفس الضحكة التي لم أرها منذ عام كامل، و تتأملني، ثم تأسف لحالي حينما تلحظ نحول جسدي!

..

AM١١:٥٥

شريف محمد عبد الله...

أتصفح الانترنت من هاتفي الـــ (آي فون) و أجد مجموعة غريبة أنشأها بعض أصدقائي تتحدث عني...

أرى صورتي أمامي و أنا حليق!

..

AM١١:٥٥

د.عزيز كامل محب...

و الآن وصلت إلى الصفحة الأخيرة من صحيفة الأهرام، صفحة الحظ والوفيات.. احتفظ بقراءة حظي حتى النهاية لأني على أساسه ارتب يومي!

"تحتاج إلى تقوية أواصر المحبة مع الأهل"

-حسنا!

لا تخافوا كالباقين الذين لا رجاء لهم.. فقد ذهبت إلى موضع راحتي، و ارتحت من أتعابي.

الذكرى السنوية الأولى

للابن الغالي و الأخ الحنون:

د.عزيز كامل محب

الأسرة، و الأهل، و الأصدقاء يشاركونك فرحك السماوي بالقداس الإلهي الواحدة بعد الظهر يوم الجمعة ١٧-٢-٢٠١٢ بكنيسة أبي سيفين بالمهندسين.بقدر حزننا لفراقك، بقدر فرحنا بوجودك بين أحضان الأبرار و القديسين: فيولا -كارمن -مونيكا -باتريشيا.بالإرادة، و حب كل الناس عشت، و في سلام، و سكينة رحلت. و لكن عزاؤنا أنك مع القديسين، مع المسيح ذلك أفضل جدًا.

أبوك كامل، أخوك آندرو.

AM١١:٥٧

أستاذ عادل رضا...

ما بالهم هذان الشخصان،شحب وجهيهما،وتجمدت ملامحهما ما خطبهم؟!

AM١١:٥٧

شريف محمد عبد الله...

أنا: دكتور عزيز..!

د.عزيز: شريف ما بالك!

أنا: أنا خائف!

د.عزيز: أنا خائف أيضا.. لِمَ أنت خائف؟! أنا أشد حاجة منك للخوف!

أنا: خذ هاتفي القي نظرة.

Rest In Peace (فليرقدوا بسلام)

زملاؤنا يا جماعة: شريف محمد عبد الله، محمد مصطفى السيد، عمر فوزي مرزوق.الذين توفوا في حادث أكتوبر المروع في ليلة ١٧-٢-٢٠١١ نريد أن تتذكرهم بالدعاء لهم.. اللهم تغمدهم بواسع رحمتك.. عسى الله عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتكم! إذن في تلك الليلة لم تَدُر هذه الميدالية الأرجوانية في باب شقتنا!

AM١١:٥٨

د.عزيز كامل محب...

د.عزيز: لا تقلق!

شريف: هذه المرة أنا قلق.

د.عزيز: إذن خذ تصفح الجريدة!

أستاذ عادل: ما خطبكم هل لي أن افهم؟!

د.عزيز: لِمَ أنت معنا هُنا؟! هل تعرف؟!

أستاذ عادل: معكم لأني استقليت المترو، و أريد أن أصل إلى وجهتي!

شريف: لن تصل أبدًا!

د.عزيز: ألا تُلاحظ أننا في عربة المترو التاسعة؟! عدد عربات

هذا الخط ثمانية فقط! هذه العربة لا وجود لها أساسا!

..

PM ١٢:٠٠

أستاذ عادل رضا...

أُغمض عيني مرة أُخرى.. أُريح ظهري المرهق، المنحني، على ظهر المقعد.. أتنفس الصعداء بيأس.

يا إلهي من أحب لقاء الله.. أحب الله لقاءه.

عله خير!